بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

فإن التدبر قضية نسبية يتفاوت الناس فيها، بل تتفاوت لدى الشخص الواحد في أحواله المختلفة؛ وذلك للتفاوت الحاصل في مقدماتها.

وهذا أصل ينبغي استحضاره عند الكلام على هذا المعنى الشريف.

ما يتوقف عليه التدبر إجمالاً:

لابد لتحصيل التدبر من تحقق الشروط وانتفاء الموانع؛ فعندئذ يوجد السبب التام الذي يُؤَثِّر التدبر بإذن الله تعالى.

الشروط الأساسية للتدبر:

لسنا بحاجة في هذا المقام للحديث عن مُتَعلَّق التدبر – وهو القرآن الكريم – من جهة ما حواه من الهدايات التي تفوت الحصر ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[الإسراء: ٩]، ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾[الإسراء: ٨٩]، أو من جهة قوة تأثيره في النفوس ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾[الرعد: ٣١]. ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾[الحشر: ٢١]. ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾[الزمر: ٢٣].

وإنما المقصود بيان ما يتصل بنا – معاشر المخاليق – من الأوصاف التي تُطْلَب كشرط يتوقف عليه حصول التدبر. وذلك بحسب النظر الكُلِّي ينحصر في ثلاثة أمور:

الأول: وجود المَحَل القابل (القلب الحي).

الثاني: العمل الذي يصدر من المكلف (القراءة أو الاستماع مع حضور القلب).

الثالث: قدر من الفهم للكلام المقروء أو المسموع.

وهذه الأمور الثلاثة يحصل فيها التفاوت كما لا يخفى، ولكل واحد منها جملة من الأسباب المُعِيْنَة التي يقوى باستجماعها أو يضعف بتخلفها وقد ينعدم.

وقد جَمَعَت هذه الشروط آية في كتاب الله تعالى، وهي قوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[ق: ٣٧]. حيث صرحت بالشرطين الأولين، وأما الثالث فهي دالة عليه لزومًا؛ وذلك أن إلقاء السمع لا بد أن يكون معه الكلام مفهومًا لدى السامع، وإلا فإن الإصغاء للكلام الذي لا يفهمه أصلاً كالأعجمي لا يحصل به المقصود.

تعليق إجمالي على الآية من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله:

قال ابن تيمية رحمه الله: "فَإِنَّ مَنْ يُؤْتَى الْحِكْمَةَ وَيَنْتَفِعُ بِالْعِلْمِ عَلَى مَنْزِلَتَيْنِ: إمَّا رَجُلٌ رَأَى الْحَقَّ بِنَفْسِهِ فَقَبِلَهُ فَاتَّبَعَهُ وَلَمْ يَحْتَجْ إلَى مَنْ يَدْعُوهُ إلَيْهِ فَذَلِكَ صَاحِبُ الْقَلْبِ ؛ أَوْ رَجُلٌ لَمْ يَعْقِلْهُ بِنَفْسِهِ بَلْ هُوَ مُحْتَاجٌ إلَى مَنْ يُعَلِّمُهُ وَيُبَيِّنُهُ لَهُ وَيَعِظُهُ وَيُؤَدِّبُهُ فَهَذَا أَصْغَى فَـ : ﴿ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧]. أَيْ حَاضِرُ الْقَلْبِ لَيْسَ بِغَائِبِهِ . كَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ : أوتى الْعِلْمَ وَكَانَ لَهُ ذِكْرَى[1]".

" وَأَيْضًا فَذِكْرُ الإِنْسَانِ يَحْصُلُ بِمَا عَرَفَهُ مِنْ الْعُلُومِ قَبْلَ هَذَا فَيَحْصُلُ بِمُجَرَّدِ عَقْلِهِ، وَخَشْيَتُهُ تَكُونُ بِمَا سَمِعَهُ مِنْ الْوَعِيدِ . فَبِالأَوَّلِ يَكُونُ مِمَّنْ لَهُ قَلْبٌ يَعْقِلُ بِهِ، وَالثَّانِي يَكُونُ مِمَّنْ لَهُ أُذُنٌ يَسْمَعُ بِهَا .

وَقَدْ تَحْصُلُ الذِّكْرَى الْمُوجِبَةُ لِلْخَيْرِ بِهَذَا وَبِهَذَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴾ [ق: ٣٦]. ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[ق: ٣٧] ....

فَالَّذِي يَسْمَعُ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ سَمْعًا يَعْقِلُ بِهِ مَا قَالُوهُ يَنْجُو . وَإِلا فَالسَّمْعُ بِلا عَقْلٍ لا يَنْفَعُهُ كَمَا قَالَ: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ [محمد: ١٦]. وَقَالَ: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [يونس: ٤٢].وَقَالَ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[يوسف:٢] .

وَكَذَلِكَ الْعَقْلُ بِلا سَمْعٍ لِمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ لا يَنْفَعُ . وَقَدْ اعْتَرَفَ أَهْلُ النَّارِ بِمَجِيءِ الرُّسُلِ فَقَالُوا : ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾[الملك: ٩]. وَكَذَلِكَ الْمُعْتَبِرِينَ بِآثَارِ الْمُعَذَّبِينَ الَّذِينَ قَالَ فِيهِمْ : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ [الحج: ٤٦]. إنَّمَا يَنْتَفِعُونَ إذَا سَمِعُوا أَخْبَارَ الْمُعَذَّبِينَ الْمُكَذِّبِينَ لِلرُّسُلِ وَالنَّاجِينَ الَّذِينَ صَدَّقُوهُمْ فَسَمِعُوا قَوْلَ الرُّسُلِ وَصَدَّقُوهُمْ[2] " ا.هـ

---

[1] - الفتاوى (٣١١/٩).
[2] - السابق (١٨٠/١٦- ١٨١).

وقال ابن القيم رحمه الله: " الناس ثلاثة : رجل قلبه ميت، فذلك الذي لا قلب له، فهذا ليست هذه الآية ذكرى في حقه.

الثاني: رجل له قلب حي مستعد، لكنه غير مستمع للآيات المتلوة، التي يخبر بها الله عن الآيات المشهودة، إما لعدم ورودها، أو لوصولها إليه ولكن قلبه مشغول عنها بغيرها، فهو غائب القلب ليس حاضرًا، فهذا أيضا لا تحصل له الذكرى، مع استعداده ووجود قلبه.

والثالث: رجلٌ حيُّ القلبِ مستعد، تليت عليه الآيات، فأصغى بسمعه، وألقى السمع وأحضر قلبه، ولم يشغله بغير فهم ما يسمعه، فهو شاهد القلب، ملقي السمع، فهذا القسم هو الذي ينتفع بالآيات المتلوة والمشهودة.

فالأول: بمنزلة الأعمى الذي لا يبصر.

والثاني: بمنزلة البصير الطامح ببصره إلى غير جهة المنظور إليه، فكلاهما لا يراه.

والثالث: بمنزلة البصير الذي قد حدق إلى جهة المنظور، وأتبعه بصره، وقابله على توسط من البعد والقرب، فهذا هو الذي يراه.

فسبحان من جعل كلامه شفاء لما في الصدور.

فإن قيل: فما موقع (أو) من هذا النظم على ما قررت؟

قيل : فيها سر لطيف ولسنا نقول : إنها بمعنى الواو كما يقوله ظاهرية النحاة.

فاعلم أن الرجل قد يكون له قلب وقَّاد، مليءٌ باستخراج العبر، واستنباط الحكم، فهذا قلبه يوقعه على التذكر والاعتبار، فإذا سمع الآيات كانت له نورا على نور. وهؤلاء أكمل خلق الله، وأعظمهم إيمانا وبصيرة، حتى كأن الذي أخبرهم به الرسول مشاهد لهم، لكن لم يشعروا بتفاصيله وأنواعه، حتى قيل: إن مثل حال الصديق مع النبي صلى الله عليه وسلم، كمثل رجلين دخلا دارًا، فرأى أحدهما تفاصيل ما فيها وجزئياته، والآخر وقعت يده على ما في الدار ولم ير تفاصيله ولا جزئياته، لكن علم أن فيها أمورا عظيمة، لم يدرك بصره تفاصيلها، ثم خرجا فسأله عما رأى في الدار، فجعل كلما أخبره بشيء صدَّقه، لما عنده من شواهد، وهذه أعلى الدرجات الصديقية، ولا تستبعد أن يمن الله المنان على عبد بمثل هذا الإيمان، فإن فضل الله لا يدخل تحت حصر ولا حسبان.

فصاحب هذا القلب إذا سمع الآيات وفي قلبه نور من البصيرة ازداد بها نورًا إلى نوره. فإن لم يكن للعبد مثل هذا القلب فألقى السمع وشهد قلبه ولم يغب حصل له التذكر أيضا ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾[البقرة: ٢٦٥]. والوابل والطل في جميع الأعمال وآثارها وموجباتها. وأهل الجنة سابقون مقربون، وأصحاب يمين، وبينهما في درجات التفضيل ما بينهما[1]".

" قلت: جعل الله سبحانه كلامه ذكرى لا ينتفع بها إلا من جمع هذه الأمور الثلاثة:

أحدها: أن يكون له قلب حي واع، فإذا فقد هذا القلب لم ينتفع بالذكرى.

---

[1] - مدارج السالكين (٤٤٢/١ - ٤٤٣).

الثاني: أن يصغي بسمعه فيميله كله نحو المخاطِب، فإن لم يفعل لم ينتفع بكلامه.

الثالث: أن يُحْضِر قلبه وذهنه عند المُكَلِّم له، وهو الشهيد، أي: الحاضر غير الغائب، فإن غاب قلبه وسافر في موضع آخر لم ينتفع بالخطاب.

وهذا كما أن المُبصِر لا يدرك حقيقة المرئي إلا إذا كانت له قوة مُبْصِرة، وحَدَّق بها نحو المرئي، ولم يكن قلبه مشغولا بغير ذلك، فإن فقد القوة المبصرة، أو لم يُحدِّق نحو المرئي، أو حَدَّق نحوه ولكن قلبه كله في موضع آخر لم يدركه، فكثيرا ما يمر بك إنسان أو غيره وقلبك مشغول بغيره فلا تشعر بمروره. فهذا الشأن يستدعي صحة القلب وحضوره وكمال الإصغاء[1]".

" فتأمل ما تحت هذه الألفاظ من كنوز العلم، وكيف تفتح مراعاتها للعبد أبواب العلم والهدى، وكيف ينغلق باب العلم عنه من إهمالها وعدم مراعاتها؛ فإنه سبحانه أمر عباده أن يتدبروا آياته المتلوة المسموعة والمرئية المشهودة بما تكون تذكرة لمن كان له قلب؛ فإن من عدم القلب الواعي عن الله لم ينتفع بكل آية تمر عليه ولو مرت به كل آية، ومرور الآيات عليه كطلوع الشمس والقمر والنجوم، ومرورها[2] على من لا بصر له، فإذا كان له قلب كان بمنزلة البصير إذا مرت به المرئيات؛ فإنه يراها، ولكن صاحب القلب لا ينتفع بقلبه إلا بأمرين: أحدهما أن يُحضِره ويُشْهِده لما يلقى إليه؛ فإن كان غائبا عنه مسافرا في الأماني والشهوات والخيالات لا ينتفع به، فإذا أحضره أشهده لم ينتفع إلا بأن يلقى سمعه ويصغي بكليته إلى ما يوعظ به ويرشد إليه. وها هنا ثلاثة أمور:

أحدها: سلامة القلب وصحته وقبوله.

الثاني: إحضاره وجمعه ومنعه من الشرود والتفرق.

الثالث: إلقاء السمع وإصغاؤه والإقبال على الذِّكْر، فذَكَر الله تعالى الأمور الثلاثة في هذه الآية[3]".

" وأيضًا فإن الآية تضمنت تقسيما وترديدا بين قسمين:

أحدهما: من كان له قلب.

والثاني: من ألقى السمع وحضر بقلبه ولم يغب، فهو حاضر القلب شاهده لا غائبه. وهذا والله أعلم سر الإتيان بأو دون الواو، لأن المنتفع بالآيات من الناس نوعان:

أحدهما: ذو القلب الواعي الزكي الذي يكتفي بهدايته بأدنى تنبيه، ولا يحتاج إلى أن يستجلب قلبه ويحضره ويجمعه من مواضع شتاته، بل قلبه واع زكي قابل للهدى غير معرض عنه، فهذا لا يحتاج إلا إلى وصول الهدى إليه فقط لكمال استعداه وصحة فطرته، فإذا جاءه الهدى سارع قلبه إلى قبوله كأنه كان مكتوبًا فيه، فهو قد أدركه مجملا ثم جاء الهدى بتفصيل ما

---

[1] - مدارج السالكين (٢٣١/٣).
[2] - هكذا في الأصل. ولعلها: "كمرورها".
[3] - مفتاح دار السعادة (١٦٩- ١٧٠).

شهد قلبه بصحته مجملاً، وهذه حال أكمل الخلق استجابة لدعوة الرسل، كما هي حال الصديق الأكبر رضي الله عنه.

والنوع الثاني: من ليس له هذا الاستعداد والقبول، فإذا ورد عليه الهدى أصغى إليه بسمعه، وأحضر قلبه، وجمع فكرته عليه، وعلم صحته وحسنه بنظره واستدلاله. وهذه طريقة أكثر المستجيبين، ولهم نوع ضرب الأمثال، وإقامة الحجج، وذِكْر المعارضات و الأجوبة عنها[1]".

"فلم يُختلف في أن المراد بالقلب: القلب الواعي، وأن المراد بإلقاء السمع: إصغاؤه وإقباله على المُذَكِّر، وتفريغ سمعه له. واختُلِف في الشهيد على أربعة أقوال: أحدها: أنه من المشاهدة، وهي الحضور، وهذا أصح الأقوال، ولا يليق بالآية غيره... فإن قوله: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[ق: ٣٧].جملة حالية، والواو فيها واو الحال، أي: ألقى السمع في هذه الحال. وهذا يقتضى أن يكون حال إلقائه السمع شهيدا[2]".

والمقصود أنك متى ما " أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألق سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه، فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[ق: ٣٧]، وذلك أن تمام التأثير لما كان موقوفاً على مؤثر مقتض، ومحل قابل، وشرط لحصول الأثر، وانتفاء المانع الذي يمنع منه، تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظ وأبينه وأدله على المراد، فقوله تعالى:﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾[ق: ٣٧] إشارة إلى ما تقدم من أول السورة إلى هاهنا، وهذا هو المؤثر. وقوله:﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾[ق: ٣٧]. فهذا هو المحل القابل، والمراد به القلب الحي الذي يعقل عن الله، كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٦٩ - ٧٠]. أي: حي القلب.

وقوله: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾[ق: ٣٧]. أي: وجَّه سمعه وأصغى حاسة سمعه إلى ما يقال له، وهذا شرط التأثر بالكلام. وقوله:﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[ق: ٣٧]. أي: شاهد القلب حاضر غير غائب.

قال ابن قتيبة رحمه الله: "استمع كتاب الله وهو شاهد القلب والفهم، ليس بغافل ولا ساه" وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثير، وهو سهو القلب وغيبته عن تعقل ما يقال له، والنظر فيه وتأمله. فإذا حصل المؤثر وهو القرآن، والمحل القابل وهو القلب الحي، ووجد الشرط وهو الإصغاء، وانتفى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب، وانصرافه عنه إلى شيء آخر، حصل الأثر وهو الانتفاع والتذكر[3]".

"فجمع سبحانه بين السمع والعقل، وأقام بهما حجته على عباده، فلا ينفك أحدهما عن صاحبه أصلا، فالكتاب المنزل والعقل المُدْرِك حجة الله على خلقه[4]".

---

[1] - السابق ص١٧١.
[2] - مفتاح دار السعادة ص١٧٠.
[3] - الفوائد ص٣.
[4] - الصواعق المرسلة (٤٥٨/٢).

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

ذكر حاصل أقوال المفسرين في الآية:

قوله: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾[ق: ٣٧].

فسره الأكثر بالعقل، وبه قال ابن عباس[١]، ومجاهد[٢]، وابن زيد[٣]، والفراء[٤]، وابن جرير[٥]، والواحدي[٦]، وابن عطية[٧]، والقرطبي[٨]، والشوكاني[٩]، وابن عاشور[١٠].

وفسره بعضهم بالقلب الحي كما قال قتادة[١١] ومقاتل بن سليمان[١٢]، أو الواعي[١٣]، أو السليم[١٤] الذي يعقل به ويفهم ويتفكر في حقائقه.

ولا منافاة بين هذه الأقوال؛ فإن المقصود بالقلب ما يحصل به العقل والوعي وحسن الإدراك، وذلك من أوصاف القلب الحي السليم؛ ولذا عبر عنه ابن كثير رحمه الله بقوله:" أي: لب يعي به[١٥]" ا.هـ .

وذلك قلب المؤمن كما قال ابن أبي زمنين[١٦].

وقال ابن عطية رحمه الله بعد أن فسره بالعقل: " والمعنى: لمن كان له قلب واع ينتفع به[١٧]".

فائدة:

---

[١] - انظر: البغوي (٢٧٦/٤)، الخازن (٢٣٩/٦).
[٢] - انظر: القرطبي (٢٣/١٧)، ابن كثير (٤٠٩/٧).
[٣] - انظر: ابن جرير (٣٧٢/٢٢).
[٤] - معاني القرآن (٨٠/٣).
[٥] - جامع البيان (٣٧٢/٢٢).
[٦] - الوجيز ص١٠٢٥.
[٧] - المحرر الوجيز (٥٥/٨).
[٨] - فتح القدير (١١٣/٥).
[٩] - الجامع (٢٣/١٧).
[١٠] - التحرير (٣٢٤/٢٦).
[١١] - جامع البيان (٣٧٢/٢٢).
[١٢] - تفسير مقاتل (٢٧٣/٣).
[١٣] - الكشاف (٣٩٤/٤)، الرازي (١٨٢/٢٨)، البيضاوي (٢٣٢/٥)، ابن جزي (٨٠/٣)، أبو حيان (٩٨/٨)، النيسابوري (٥٨/٧).
[١٤] - أبو السعود (١٣٤/٨)، الألوسي (١٩١/٢٦).
[١٥] - تفسير ابن كثير (٤٠٩/٧).
[١٦] - تفسير ابن أبي زمنين (١٩٢/٢).
[١٧] - المحرر الوجيز (٥٥/٨).

قد يُفهم من التنكير معنى الكمال، أي: القلب الكامل في الحياة والوعي والإدراك.

قال السعدي رحمه الله: "أي: قلب عظيم حي ذكي زكي. فهذا إذا ورد عليه شيء من آيات الله تذكر بها وانتفع فارتفع[1]" ا.هـ .

ولا ريب أن الاعتبار والتذكر والتدبر لا يتوقف على ذلك، ولكن يحصل منه لكل أحد بحسبه؛ ولهذا فسَّره بعضهم بأن ذلك حاصل لمن له قلب ما ولو كان غير كامل، "فكأنه تعالى قال: "إن في ذلك لذكرى لمن يصح أن يقال (له قلب). وحينئذ فمن لا يتذكر لا قلب له أصلاً[2]".

قال الشيخ تقي الدين رحمه الله:"هذا مع أن الناس متباينون في نفس أن يعقلوا الأشياء من بين كامل وناقص، وفيما يعقلونه من بين قليل وكثير وجليل ودقيق وغير ذلك..."[3].

"فَصَاحِبُ الْعِلْمِ فِي حَقِيقَةِ الأَمْرِ هُوَ الْقَلْبُ، وَإِنَّمَا سَائِرُ الأَعْضَاءِ حَجَبَةٌ لَهُ تُوَصِّلُ إِلَيْهِ مِنْ الأَخْبَارِ مَا لَمْ يَكُنْ لِيَأْخُذَهُ بِنَفْسِهِ، حَتَّى إِنَّ مَنْ فَقَدَ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الأَعْضَاءِ فَإِنَّهُ يَفْقِدُ بِفَقْدِهِ مِنْ الْعِلْمِ مَا كَانَ هُوَ الْوَاسِطَةَ فِيهِ... وَكَذَلِكَ مَنْ نَظَرَ إِلَى الأَشْيَاءِ بِغَيْرِ قَلْبٍ، أَوْ اسْتَمَعَ إِلَى كَلِمَاتِ أَهْلِ الْعِلْمِ بِغَيْرِ قَلْبٍ، فَإِنَّهُ لا يَعْقِلُ شَيْئًا، فَمَدَارُ الأَمْرِ عَلَى الْقَلْبِ، وَعِنْدَ هَذَا تَسْتَبِينُ الْحِكْمَةُ فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦] ، حَتَّى لَمْ يَذْكُرْ هُنَا الْعَيْنَ كَمَا فِي الآيَاتِ السَّوَابِقِ، فَإِنَّ سِيَاقَ الْكَلامِ هُنَا فِي أُمُورٍ غَائِبَةٍ وَحِكْمَةٍ مَعْقُولَةٍ مِنْ عَوَاقِبِ الأُمُورِ لا مَجَالَ لِنَظَرِ الْعَيْنِ فِيهَا، وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٤]، وَتَتَبَيَّنُ حَقِيقَةُ الأَمْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[ق: ٣٧][4] ".

قوله: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ ﴾[ق: ٣٧][5].

والمراد به الإصغاء كما قال ابن جرير[6] وغيره[7]. والمعنى:"صرف سمعه إلى هذه الأنباء الواعظة، وانتبه في سماعها، فذلك إلقاء له عليها[1]".

---

[1] - تيسير الكريم الرحمن ص٨٠٧.
[2] - التفسير الكبير (١٨٢/٢٨). وانظر: تفسير أبي السعود (١٣٤/٨)، القاسمي (٤٨/١٥).
[3] - الفتاوى الكبرى (٣٠٩/٩).
[4] - السابق (٣١٠/٩-٣١١).
[5] - انظر: الواحدي في الوجيز ص ١٠٢٥، البغوي (٢٧٦/٤)، القرطبي (٢٣/١٧)، الخازن (٢٣٩/٦)، ابن كثير (٤٠٩/٧)، تفسير أبي أبي السعود (١٣٤/٨)، فتح القدير (١١٣/٥)، روح المعاني (١٩١/٢٦)، السعدي ص٨٠٧.
[6] - جامع البيان (٢٧٣/٢٢).
[7] - الكشاف (٣٩٤/٤)، البيضاوي (٢٣٢/٥)، النيسابوري (٥٨/٧)، أبو حيان (٩٨/٨).

قال ابن كثير رحمه الله:"أي: استمع الكلام فوعاه، وتَعَقَّله بقلبه، وتَفَهَّمه بلُبِّه[٢]"ا.هـ .

والتعبير بالإلقاء"مستعار لشدة الإصغاء للقرآن...كأن أسماعهم طُرِحت في ذلك فلا يشغلها شيء آخر تسمعه[٣]".

"أي:إلقاء عظيمًا بغاية إصغائه حتى كأنه يرمي بشيء ثقيل من علو إلى سفل.(السمع)أي:الكامل الذي قد جرَّده عن الشواغل من الحظوظ وغيرها...[٤]"

وفي التفسير الكبير:"لأن من لا يسمع فكأنه حفظ سمعه وأمسكه، فإذا أرسله حصل الاستماع[٥]" ا.هـ .

قوله: ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[ق: ٣٧].

أي: شاهد القلب، حاضر الذهن بكليته، ليس بغافل، ولا ساه، ولا يُحَدِّث نفسه بغيره؛ لأن من لا يفهم في حكم الغائب. هكذا فسره عامة أهل العلم سَلَفًا وخَلَفًا[٦]. وقيل غير ذلك[٧].

ثم إن بناء المبالغة دال على أنه في غاية ما يكون من تصويب الفكر، وجمع الخاطر، فلا يغيب عنه شيء مما تُلي عليه وأُلقي إليه[٨].

وظاهر كلام أكثر أهل العلم أن هذه الأوصاف جميعًا لموصوف واحد له قلب حي، مع إصغاء السمع وحضور القلب مع ما يسمع.

ويحتمل أن يكون ذلك لصنفين من الناس:

الأول: صاحب القلب الحي الوقَّاد الذي يستخرج المعاني والعبر بتدبره وفكره.

الثاني: من كان دونه، لكنه أصغى بسمعه وأحضر قلبه حال الاستماع؛ فإنه ينتفع بذلك ويتذكر ويعتبر؛ فالتذكر حاصل للكامل والناقص، وإنما يحول دونه الإعراض.

---

[١] - المحرر الوجيز (٥٥/٨).
[٢] - تفسير ابن كثير (٤٠٩/٧).
[٣] - التحرير والتنوير (٣٢٤/٢٦).
[٤] - نظم الدرر (٢٦٤/٧).
[٥] - تفسير الرازي (١٨٢/٢٨).
[٦] - انظر في ذلك : تفسير مقاتل (٢٧٣/٣)، ابن جرير (٢٧٣/٢٢)، معاني القرآن للزجاج(٤٩/٥)، ابن أبي زمنين (١٩٢/٢)، الواحدي في الوجيز ص ١٠٢٥، البغوي (٢٧٦/٤)، الكشاف (٣٩٤/٤)، ابن عطية (٥٦/٨)، نظم الدرر(٢٦٤/٧)، القرطبي(٢٣/١٧)، البيضاوي(٢٣٢/٥)، الخازن (٢٣٩/٦)، ابن جزي(٨٠/٣)، البحر المحيط (٩٨/٨)، ابن كثير(٤٠٩/٧)، الدر المنثور(٦٣٩/١٣)، تفسير أبي السعود(١٣٤/٨)، فتح القدير(١١٣/٥)، الألوسي(١٩١/٢٦)،تفسير السعدي ص٩٦٠.

[٧] - انظر: ابن عاشور(٣٢٤/٢٦).
[٨] - نظم الدرر (٢٦٤/٧).

ولعل هذا القول أقرب إلى ظاهر الآية، والله تعالى أعلم[1].

والحاصل: أنه على قدر ما يتحقق من هذه الأوصاف على قدر ما يحصل من التذكر؛ لأن الحكم المعلق على وصف يزيد بزيادته وينقص بنقصانه.

تنبيه: ليس بخاف على طالب العلم أن الذكرى المشار إليها في الآية لا تحصل إلا بالتدبر و التفكر، فهي نتيجة لذلك.

بيان شروط التدبر وما يتفرع عنها تفصيلاً:

الشرط الأول: وجود المحل القابل:

وهو القلب الحي، وذلك أن القلب إذا كان زكيًا يَقِظًا أثمر ذلك فيه كل وصف ومعنى شريف لأن " الْقَلْبَ إِذَا كَانَ رَقِيقًا لَيِّنًا كَانَ قَبُولُهُ لِلْعِلْمِ سَهْلا يَسِيرًا، وَرَسَخَ الْعِلْمُ فِيهِ وَثَبَتَ وَأَثَّر، وَإِنْ كَانَ قَاسِيًا غَلِيظًا كَانَ قَبُولُهُ لِلْعِلْمِ صَعْبًا عَسِيرًا.

ولا بُدَّ مَعَ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ زَكِيًّا صَافِيًا سَلِيمًا، حَتَّى يَزْكُوَ فِيهِ الْعِلْمُ وَيُثْمِرَ ثَمَرًا طَيِّبًا، وَإِلا فَلَوْ قَبِلَ الْعِلْمَ وَكَانَ فِيهِ كَدَرٌ وَخَبَثٌ أَفْسَدَ ذَلِكَ الْعِلْمَ، وَكَانَ كَالدَّغَلِ فِي الزَّرْعِ إِنْ لَمْ يَمْنَعْ الْحَبَّ مِنْ أَنْ يَنْبُتَ مَنَعَهُ مِنْ أَنْ يَزْكُوَ وَيَطِيبَ، وَهَذَا بَيِّنٌ لأُولِي الأَبْصَارِ[2]" .

ومن هنا كان الصحابة رضي الله عنهم يتعلمون الإيمان قبل القرآن.

فعن جندب بن عبدالله رضي الله عنه قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ونحن فتيان حزاورة، فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن فازددنا به إيمانًا"[3].

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنه قال: لقد عشنا برهة من دهرنا وإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة على محمد صلى الله عليه وسلم فنتعلم حلالها وحرامها، وآمرها وزاجرها، وما ينبغي أن يقف عنده منها، كما تعلمون أنتم اليوم القرآن، ثم لقد رأيت اليوم رجالاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته ما يدري ما آمره ولا زاجره، ولا ما ينبغي أن يقف عنده منه[4].

وعن حذيفة رضي الله عنه:"إنَّا قوم أُوتينا الإيمان قبل أن نُؤتَى القرآن، وإنكم قوم أُوتيتم القرآن قبل أن تُؤتوا الإيمان"[5].

---

[1] - وممن ذهب إلى هذا: البقاعي في نظم الدرر(٢٦٤/٧)،والنيسابوري(٥٨/٧)،والسعدي ص٨٠٧.
و للاستزادة في محمل (أو) راجع: الرازي (٢٨ / ١٨٢-١٨٣)، تفسير أبي السعود (١٣٤/٨)،الألوسي(١٩٢/٢٦)، ابن عاشور(٣٢٤/٢٦).

[2] - الفتاوى (٣١٥/٩).

[3] - رواه ابن ماجه (٦١)، والطبراني في الكبير (١٦٥٦)، والبيهقي في السنن(١٢٠/٣)، وفي الشعب (٥٠)، وصححه الألباني.

[4] - رواه الحاكم في المستدرك (٩١/١)، والبيهقي في السنن (١٢٠/٣)، والطحاوي في مشكل الآثار (١٤٥٣)، وابن نصر في قيام الليل الليل (المختصر ٢٢٢).

[5] - سنن البيهقي (١٢٠/٣).

وقد جاء عن عثمان رضي الله عنه:"لو طهرت قلوبكم ما شبعتم من كلام الله عز وجل[1]".

وعلى قدر حياة القلب يكون تأثره وتدبره وتذكره، فتارة يقوى، وتارة يضعف، وقد ينعدم ويتلاشى، كما يدل على ذلك ما جاء في مواضع كثيرة من كتاب الله تعالى من الطبع على القلوب، والختم عليها، وإزاغتها، فصاحب هذا القلب الأغلف أو المنكوس لا يحصل له شيء من التدبر والاعتبار والتفكر والانتفاع بما يقرأ أو يسمع من آيات الله تعالى.

قال ابن عباس رضي الله عنهما عند قوله تعالى: ﴿ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ ﴾[ق: ٣٧] : كان المنافقون يجلسون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يخرجون فيقولون: ماذا قال آنفًا؟! ليس معهم قلوب[2]". يشير إلى قوله تعالى عن المنافقين: ﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴾[محمد: ١٦].

سؤال وجوابه:

قد يسأل طالب العلم فيقول أليست الآيات الأربع في الحث على التدبر: واحدة منها عامة – آية ص– وأخرى – آية المؤمنون– في سياق الكلام على الكافرين، والباقي – آية النساء، ومحمد– في سياق –الحديث عن المنافقين، وهؤلاء ليسوا من أصحاب القلوب الحية!! فما الجواب؟!

والجواب:

١ . أن الآيات الثلاث مُصَدَّرة بالاستفهام الإنكاري ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴾ ، ﴿ أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ﴾ ، فهذه الآيات ينبغي أن تُفهم مع ضَمِّها إلى غيرها من الآيات التي تُخبر عن الطبع والختم والران، وما نتج عن ذلك من العمى والصمم؛ ولذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾[البقرة: ٦ ، ٧] . ﴿ وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، كما أخبر عن قيلهم: ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا

---

[1] - الزهد ص١٢٨، حلية الأولياء (٣٠٠/٧).
[2] - الدر المنثور (٦٣٩/١٣).

عَٰمِلُونَ ﴾[فصلت: ٥] ، وقولهم: ﴿ قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ﴾ [الشعراء: ١٣٦] . إلى غير ذلك من الآيات.

وذلك جزاءً وفاقًا كما قال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١١٠ وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ ﴾[الأنعام: ١١٠ ، ١١١]. فجازاهم بتكذيبهم الأول.

والله يقول مخاطبًا أهل الإيمان: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾[الأنفال: ٢٤] .

وهكذا- أيضاً- الآيات التي تخبر أن القرآن والإنذار إنما ينتفع بهما المؤمنون والمتقون، كقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾[البقرة: ٢] ، وقوله: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ﴾[يس: ١١] ، وقوله: ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [يس: ٧٠] ، وقوله: ﴿ إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٦]أي: سماع استجابة وقبول.

ومثل ذلك الآيات التي تخبر أن الله لا يهدي القوم الكافرين، والفاسقين، والظالمين، أي: من سبق في علمه الأزلي شقاوتهم، وبعض العلماء يُعبِّر عن المعنى بقوله: يعني المُصِرِّين على كفرهم وظلمهم وعنادهم.

ولهذا قال الله تعالى في الآية العامة في التدبر: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾[ص: ٢٩] ، ثم خص بالتذكر ببعضهم فقال: ﴿ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[ص: ٢٩].

والكلام في هذا يطول، وما ذكرته يرشد إلى غيره والله تعالى أعلم[1].

٢ . أشرنا سابقاً إلى التفاوت الحاصل بين القلوب من ناحية حياتها ومرضها وموتها، وقوتها وضعفها، فالقلب قد يكون مريضًا أو ضعيفًا فإذا أصغى صاحبه بسمعه مع حضور القلب حال الاستماع أو القراءة فإنه ينتفع ويعتبر، ما لم يصل إلى حال الطمس والختم على القلب.

ثم إن للقلوب أحوالاً شتى، وأوصافًا مختلفة من الحياة والمرض والموت، ولذلك أسباب وعوامل ليس هذا موضع تفصيلها. والله أعلم.

الشرط الثاني: العمل الذي يصدر من المكلف (الاستماع، أو القراءة مع حضور القلب). وإليك بيان هذا الشرط وما يتعلق به:

---

[1] - وانظر ما سيأتي في موانع التدبر من الكلام ما يتصل بالقلب.

أما الاستماع: فيكفي في ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[الأعراف: ٢٠٤].

يقول ابن سعدي رحمه الله:" هذا الأمر عام في كل من سمع كتاب الله يُتلى، فإنه مأمور بالاستماع له والإنصات، والفرق بين الاستماع والإنصات أن الإنصات في الظاهر بترك التحدث، أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه، وأما الاستماع له فهو أن يُلقي سمعه ويُحضِر قلبه، ويتدبر ما يستمع، فإن من لاَزَم على هذين الأمرين حين يتلى كتاب الله، فإنه ينال خيرًا كثيرًا وعلمًا غزيرًا، وإيمانًا مستمرًا متجددًا، وهدىً متزايدًا وبصيرةً في دينه. ولهذا رتب الله حصول الرحمة عليها، فدل ذلك على أن من تُلي عليه الكتاب فلم يستمع له وينصت أنه محروم الحظ من الرحمة، قد فاته خير كثير[1]". ا.هـ

وقال القرطبي رحمه الله:" حُسْن الاستماع كما يجب قد مدح الله عليه فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر: ١٨]. وذم على خلاف هذا الوصف فقال: ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾[الإسراء: ٤٧]. فمدح المُنْصِت لاستماع كلامه مع حضور العقل، وأَمَر عباده بذلك أدبًا لهم، فقال: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[الأعراف: ٢٠٤]. وقال ها هنا: ﴿ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴾[طه: ١٣]. لأن بذلك ينال الفهم عن الله تعالى. وعن وهب بن منبه رحمه الله أنه قال: من أدب الاستماع سكون الجوارح، وغض البصر، والإصغاء بالسمع، وحضور العقل، والعزم على العمل؛ وذلك هو الاستماع كما يحب الله تعالى، وهو أن يكف العبد جوارحه، ولا يشغلها فيشتغل قلبه عما يسمع، ويغض طرفه فلا يلهو قلبه بما يرى، ويحصر عقله فلا يحدث نفسه بشيء سوى ما يستمع إليه، ويعزم على أن يفهم فيعمل بما يفهم. قال سفيان بن عيينة رحمه الله: أول العلم الاستماع، ثم الفهم، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر فإذا استمع العبد إلى كتاب الله تعالى وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام بنية صادقة على ما يحب الله أفهمه كما يحب، وجعل له في قلبه نورًا[2]" ا.هـ.

---

[1] - تفسير السعدي ص ٣٤٥.
[2] - القرطبي (١٧٦/١١).

وقال أبو بكر الآجري رحمه الله:" وإن الله وعد لمن استمع كلامه، فأحسن الأدب عند استماعه بالاعتبار الجميل، ولزوم الواجب لاتباعه، والعمل به، يبشره منه بكل خير، ووعده على ذلك أفضل الثواب[1]"ا.هـ.

ويقول ابن تيمية رحمه الله:" ومن أصغى إلى كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم بعقله، وتَدَبَّره بقلبه، وجد فيه من الفهم والحلاوة والهدى، وشفاء القلوب، والبركة، والمنفعة ما لا يجده في شيء من الكلام، لا مَنظومِه و لا منثورِه[2]".

وقال تلميذه ابن القيم رحمه الله:" سماع القرآن بالاعتبارات الثلاثة: إدراكًا، وفهمًا وتدبرًا، وإجابةً... فلم يعدم من اختار هذا السماع إرشادًا لحجة، و تبصرةً لعبرة، وتذكرةً لمعرفة، وفكرةً في آية، ودلالةً على رشد...، وحياةً لقلب، وغذاءً ودواءً وشفاءً، وعصمةً ونجاة، وكشف شبهة[3]".

وقال ابن عاشور رحمه الله:" فالاستماع والإنصات المأمور بهما المؤديان بالسامع إلى النظر والاستدلال، والاهتداء بما يحتوي عليه القرآن من الأدلة على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم المفضي إلى الإيمان به، ولما جاء به من إصلاح النفوس، فالأمر بالاستماع مقصود به التبليغ واستدعاء النظر والعمل بما فيه[4]".

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي النبي صلى الله عليه وسلم (اقرأ علي القرآن) قلت: أأقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: (إني أحب أن أسمعه من غيري)، قال: فافتتحت سورة النساء، فلما بلغت ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾[النساء: ٤١]، قال: (حسبك)، فالتفت فإذا عيناه تذرفان.

قال ابن بطال رحمه الله:" يحتمل أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم أحب أن يسمعه من غيره ليكون عرض القرآن سنة يُحتذى بها، كما يحتمل أن يكون لكي يتدبره ويتفهمه وذلك لأن المستمع أقوى على التدبر، ونفسه أخلى وأنشط من القارئ، لاشتغاله بالقراءة وأحكامها"[5].

قال ابن تيمية رحمه الله:" هذا سماع سلف الأمة، وأكبر مشايخها وأئمتها كالصحابة والتابعين، ومن بعدهم من المشايخ كإبراهيم بن أدهم، والفضيل بن عياض، وأبي سليمان الداراني، ومعروف الكرخي، ويوسف بن أسباط، وحذيفة المرعشي، وأمثال هؤلاء. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لأبي موسى رضي الله عنه: ذكرنا ربنا، فيقرأ وهم يسمعون ويبكون، وكان أصحاب محمد صلى الله علي وسلم إذا اجتمعوا أمروا واحدًا منهم أن يقرأ القرآن، والباقي يستمعون"[6].

---

[1] - أخلاق أهل القرآن للآجري ص٣٤.
[2] - الاقتضاء ص٣٨٤.
[3] - مدارج السالكين (٤٨٤/١ - ٤٨٥).
[4] - التحرير والتنوير (٦٣/٦).
[5] - الفتح (٩٤/٩).
[6] - التحفة العراقية ص٥٩.

وقد قص الله تعالى علينا خبر الجن وما جرى لهم من ذلك فقال: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾[الأحقاف: ٢٩]. وذم الكافرين فقال: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾[فصلت: ٢٦]. لأنهم يعلمون أن ذلك الصنيع يحول بينهم وبين القرآن فلا يتأثرون به.

ويحسن التنبيه هنا لأمرين:

الأول: أن ينظر المرء فيما يكون أدعى للتدبر بالنسبة إليه: القراءة أو الاستماع؛ فإذا كان الاستماع فليجعل لنفسه منه حظّاً صالحاً.

الثاني: من المعلوم أن الإنسان قد يتأثر ببعض التلاوات المسموعة أكثر من غيرها، وينجذب قلبه إليها، فيحسن أن يكون سماعه لمن يكون بهذه المثابة، لاسيما إذا كانت القراءة مسجلة في صلاة؛ فإن ذلك مظنة التأثر والخشوع، وهو أمر مشاهد.

وأما القراءة: فإنها الطريق إلى التدبر كالاستماع، فإذا راعى القارئ ما ينبغي له عندها فإن ذلك يكون أدعى للتدبر والانتفاع بها، فمن تلك الأمور:

١ . التهيؤ لها: وذلك من وجوه عدة، منها:

أ . اختيار الوقت المناسب، ولا شك أن أفضله ما كان ليلاً، وأفضل ذلك ما كان بعد نوم لمن وفِّق له، حيث قال – سبحانه –: ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾[المزمل: ٦]، قال ابن عباس – رضي الله عنه –: في قوله ﴿ وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾[المزمل: ٦] "هو أجدر أن يفقه القرآن[١]"، ويقول الحافظ ابن حجر- رحمه الله- : عن مُدَارَسَة جبريل لرسول الله صلى الله عليه وسلم في كل ليلة من رمضان –: "المقصود من التلاوة الحضور والفهم؛ لأن الليل مظنة ذلك لما في النهار من الشواغل والعوارض الدنيوية والدينية[٢]" ا.هـ .

وقال النووي رحمه الله: "ينبغي للمرء أن يكون اعتناؤه بقراءة القرآن في الليل أكثر، وفي صلاة الليل أكثر، والأحاديث والآثار في هذا كثيرة، وإنما رجحت صلاة الليل وقراءته لكونها أجمع للقلب، وأبعد عن الشاغلات والملهيات والتصرف في الحاجات، وأصون عن الرياء وغيره من المحبطات، مع ما جاء به الشرع من إيجاد الخيرات في الليل ، فإن الإسراء بالرسول كان ليلا[٣]" ا.هـ .

---

[١] - رواه أبو داود (١٣٠٤).
[٢] - الفتح (٤٥/٩).
[٣] - التبيان ص٣٤.

وقال الحسن بن علي رضي الله عنهما:" إن من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم فكانوا يتدبرونها بالليل، ويتفقدونها بالنهار[1]".

وقال السري السقطي:" رأيت الفوائد ترد في ظلام الليل[2]".

ب . اختيار الحال الأصلح له: وأنفع ذلك ما كان في حال قيام الليل، يقول الشنقيطي رحمه الله: لا يثبت القرآن في الصدر، ولا يسهل حفظه، وييسر فهمه إلا القيام به في جوف الليل[3]". اهـ.

وهكذا القراءة إذا كانت في صلاة فهي أفضل، وفي ذلك يقول شيخ الإسلام – رحمه الله- :" الصلاة أفضل من القراءة في غير الصلاة ... ولكن من حصل له نشاط وفهم للقراءة دون الصلاة؛ فالأفضل في حقه ما كان أنفع له"[4].

"كما أن من الناس من يجتمع قلبه في قراءة القرآن وفهمهم وتدبره ما لا يجتمع في الصلاةبل يكون في الصلاة بخلاف ذلك وليس كل ما كان أفضل يشرع لكل أحد، بل كل واحد يشرع له أن يفعل ما هو أفضل له"[5].

كما أن القراءة في حال الطهارة أفضل كما لا يخفى.

ج . تفريغ النفس من الشواغل المُشَوِّشَة للفكر والقلب.

د . الاستعاذة قبلها:

وقد أورد لذلك الحافظ بن القيم رحمه الله ثمان فوائد:

منها:"أن القرآن شفاء لما في الصدور، يُذهب لما يلقيه الشيطان فيها من الوساوس والشهوات والإرادات الفاسدة، فهو دواء لما أمرَّه فيها الشيطان، فأُمر أن يطرد مادة الداء، ويخلي منه القلب، ليصادف الدواء محلاً خاليًا، فيمكن منه، ويؤثر فيه... فيجئ هذا الدواء الشافي إلى القلب، وقد خلا من مُزاحِم ومُضَاد له، فينجح فيه.

---

[1] - السابق ص٢٩.
[2] - حلية الأولياء (١١٩/١٠).
[3] - ذكره عنه الشيخ عطية سالم – رحمه الله – في ترجمته في مقدمة الأضواء (٤/١).
[4] - الفتاوى (٦٢/٢٣).
[5] - الفتاوى (٦٠/٢٣).

ومنها: أن القرآن مادة الهدى والعلم والخير في القلب، كما أن الماء مادة النبات، والشيطان يحرق النبات أولاً فأولاً، فكلما أحس بنبات الخير من القلب، سعى في إفساده وإحراقه، فأُمر- أي المؤمن- أن يستعيذ بالله عز وجل منه، لئلا يفسد عليه ما يحصل له بالقرآن.

والفرق بين هذا الوجه والوجه الذي قبله: أن الاستعاذة في الوجه الأول لأجل حصول فائدة القرآن، وفي الوجه الثاني لأجل بقائها، وحفظها وثباتها...

ومنها: أن الشيطان يُجْلِب على القارئ بخيله ورَجِلِه، حتى يشغله عن المقصود بالقرآن، وهو تدبره وتفهمه، ومعرفة ما أراد به المتكلم به سبحانه، فيحرص بجهده على أن يحول بين قلبه وبين مقصود القرآن، فلا يكمل انتفاع القارئ به، فأُمر عند الشروع أن يستعيذ بالله عز وجل منه...

ومنها: أن الله سبحانه أخبر أنه ما أرسل من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته، والسلف كلهم على أن المعنى: إذا تلا ألقى الشيطان في تلاوته... فإذا كان هذا فعله مع الرسل عليهم السلام فكيف بغيرهم؛ ولهذا يُغلِّط القارئ تارةً، ويخلط عليه القراءة، ويشوشها عليه، فيخبط عليه لسانه، أو يُشوش عليه ذهنه وقلبه، فإذا حضر عند القراءة لم يعدم منه القارئ هذا، أو هذا، وربما جمعهما له، فكان من أهم الأمور الاستعاذة بالله تعالى منه.

ومنها: أن الشيطان أحرص ما يكون على الإنسان عندما يهم بالخير، أو يدخل فيه، فهو يشتد عليه حينئذ ليقطعه عنه... فهو بالرصد، ولا سيما عند قراءة القرآن، فأمر سبحانه العبد أن يحارب عدوه الذي يقطع عليه الطريق، ويستعيذ بالله تعالى منه أولاً ثم يأخذ في السير..."[1].

٢ . ما يُطلب مراعاته أثناء القراءة:

أ . أن ينظر فيما هو أدعى إلى تدبره: من القراءة عن ظهر قلب أو من المصحف، إذ إن الناس في ذلك يتفاوتون، فيختار كل واحد ما هو أقرب لتدبره وحضور قلبه، فإن استويا فالقراءة في المصحف تفضل على القراءة عن ظهر قلب بنظر العين.

وهذا القول أعدل الأقوال، واستحسنه النووي رحمه الله وقال:" والظاهر أن كلام السلف وفعلهم محمول على هذا التفصيل[2]" ا.هـ .

---

[1] - إغاثة اللهفان (٩٢/١-٩٤).

[2] - التبيان ص٧١، وانظر: الأذكار له ص٩١، وفتح الباري (٧٨/٩)، الإتقان (١٤٢/١)، فيض القدير (٧١٧/١).

ب . أن يختار الأصلح لقلبه من الجهر والإسرار.

وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم ما يدل على فضل الجهر بالتلاوة، كحديث أبي هريرة رضي الله عنه عم النبي صلى الله عليه وسلم أن قال : " ليس منا من لم يتغن بالقرآن يجهر به[1]".

وعنه أيضًا رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول:" ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت أن يجهر بالقرآن[2] ". كما ثبت ذلك من فعله صلى الله عليه وسلم وفعل أصحابه في عدد من الأحاديث والآثار الصحيحة.

وقال ابن عباس- رضي الله عنهما- لرجل ذكر له أنه سريع القراءة :" إن كنت فاعلاً فاقرأ قراءة تسمعها أذنك، ويعيها قلبك[3]" .

وعن ابن أبي ليلى رحمه الله قال:" إذا قرأت فأسْمِع أذنيك، فإن القلب عدل بين اللسان والأذن[4] ".

وذلك أقرب إلى التدبر في الأصل، لاسيما إذا كان خاليًا، أولم يحصل التأذي بجهره، وقد جاء في حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه مرفوعا:" الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة، والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة[5] ".

يقول النووي - رحمه الله- :" جاءت آثار بفضيلة رفع الصوت بالقراءة وآثار بفضيلة الإسرار، قال العلماء: والجمع بينهما أن الإسرار أبعد من الرياء، فهو أفضل في حق من يخاف ذلك، فإن لم يخف الرياء فالجهر أفضل، بشطر أن لا يؤذي غيره من مصلٍّ أو نائم أو غيرهما. ودليل فضيلة الجهر أن العمل فيه أكثر، ولأنه يتعدى نفعه إلى غيره، ولأنه يوقظ القلب ويجمع همَّه إلى الفكر،ويصرف سمعه إليه".

- إلى أن قال- :"فمتى حضره شيء من هذه النيات فالجهر أفضل[6]" ا.هـ.

لكن من الناس من يكون تدبره حال الإسرار أعظم فَيُقَدَّم، والله أعلم.

ج . الترتيل والتَّرَسُّل في القراءة:

---

[1] - رواه البخاري (٧٠٨٩).
[2] - رواه البخاري (٧١٠٥)، ومسلم (٧٩٢).
[3] - أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٢٧٥٩).
[4] - أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٦٧٠).
[5] - رواه أبو داود (١٣٣٣)، والترمذي (٢١١٩)، والنسائي (٨٠/٥)، وأحمد (١٥٨,١٥١/٤)، والبيهقي في الكبرى (١٣/٣). وصححه الألباني.
[6] - الأذكار ص٩١، وانظر: التبيان ص٧٦، والمجموع (١٦٦/٢).

قال تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾[المزمل: ٤]. قال في الكشاف:"ترتيل القراءة: التأني والتمهل، وتبيين الحروف والحركات، تشبيهًا بالثغر المرتل، وهو المشبه بنَوْر الأقحوان[١]".

وقال القرطبي:" أي لا تعجل بقراءة القرآن، بل اقرأه في مهل وبيان مع تدبر المعاني.

وقال الضحاك رحمه الله: اقرأه حرفًا حرفًا.

وقال مجاهد رحمه الله: أحب الناس في القراءة إلى الله أعقلهم عنه.

والترتيل: التنضيد والتنسيق، وحُسْن النظام، ومنه ثغر رَتِل ورَتَل... إذا كان حسن التنضيد...

وسمع علقمة رجلاً يقرأ قراءة حسنة فقال : لقد رتل القرآن فداه أبي وأمي.

وقال أبو بكر بن طاهر رحمه الله: تدبر في لطائف خطابه، وطالب نفسك بالقيام بأحكامه، وقلبك بفهم معانيه، وسرك بالإقبال عليه[٢]" ا.هـ.

وقال ابن كثير رحمه الله:" أي: اقرأه على تمهل فإنه يكون عونًا على فهم القرآن وتدبره[٣]" ا.هـ.

ويقول ابن مفلح – رحمه الله –:" قال القاضي: أقل الترتيل ترك العجلة في القرآن عن الإبانة، وأكمله أن يرتل القرآن ويتوقف فيها، ... والتفهم فيه والاعتبار فيه مع قلة القراءة، فهو أفضل من إدراجه بغير فهم. قال الإمام أحمد – رحمه الله – : يحسِّن القارئ صوته بالقرآن ويقرؤه بحزن وتدبر، وهو معنى قوله صلى الله عليه وسلم: (ما أذن الله لشيء كإذنه لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به)" .[٤]

وقال ابن الجوزي رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦]. : على تؤده وترسل ليتدبروا معناه[٥]" ا.هـ.

وهكذا كانت صفة قراءة النبي صلى الله عليه وسلم كما في حديث عائشة رضي الله عنها قالت:" كان يقرأ السورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها[٦]".

وعن أنس رضي الله عنه أنه سئل عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: كانت مدا، يمد بسم الله، ويمد الرحمن، ويمد الرحيم[٧]".

---

[١] - الكشاف (٦٣٨/٤)، وبنحوه في القرطبي (١٧/١). (بتصرف يسير).
[٢] - القرطبي (١٩/ ٣٧ - ٣٨).
[٣] - تفسير ابن كثير (١٤٣٥).
[٤] - الآداب الشرعية (٢٩٧/٢).
[٥] - زاد المسير (٧٠/٥).
[٦] - رواه مسلم (٥٠٧/٤).
[٧] - رواه البخاري (٧٩/٩).

وهكذا حديث حذيفة، وعوف بن مالك رضي الله عنهما في وصف قراءته صلى الله عليه وسلم في صلاة الليل.

وقال صلى الله عليه وسلم:" لا يفقه - وفي رواية: لم يفقه - من قرأ القرآن في أقل من ثلاث[1]".

وقد حدث أبو حمزة قال: قلت لابن عباس رضي الله عنهما: إني رجل سريع القراءة، وربما قرأت القرآن في ليلة مرة أو مرتين، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: لأن أقرأ سورة واحدة أعجب إليَّ من أن أفعل ذلك الذي تفعل، فإن كنت فاعلاً ولابد، فاقرأ قراءة تسمعها أُذنيك ويعيها قلبك[2].

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: لا تهذوا القرآن هذّ الشعر، ولا تنثروه نثر الدقل، وقفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن همُّ أحدِكم آخر السورة[3].

وقال الحسن البصري رحمه الله: "يا ابن آدم! كيف يرق قلبك وإنما همتك في آخر السورة[4]".

وفي الباب آثار عن السلف رضي الله عنهم في الإنكار على من أسرع في القراءة.

يقول النووي رحمه الله:" قال العلماء: والترتيل مستحب للتدبر وغيره...، لأن ذلك أقرب إلى التوقير والاحترام، وأشد تأثيرًا في القلب[5]".

قال القرطبي رحمه الله:" الترتيل أفضل من الهذ، إذ لا يصح التدبر مع الهذ[6]".

وقال ابن كثير رحمه الله:" المطلوب شرعاً إنما هو التحسين بالصوت الباعث على تدبر القرآن وتفهمه، والخشوع والخضوع ولانقياد والطاعة[7]".

ومن هنا ذهب النووي رحمه الله إلى أن تحديد مدة لختم القرآن يختلف بحسب الأشخاص فمن كان من أهل الفهم وتدقيق الفكر استحب له أن يقتصر على القدر الذي لا يخل بالمقصود من التدبر واستخراج المعاني، وكذا من كان له شغل بالعلم أو غيره من مهمات الدين ومصالح المسلمين العامة يستحب له أن يقتصر منه على القدر

---

[1] - أخرجه أبو داود (١٣٩٦)، والترمذي (٢٩٤٦)، ابن ماجه (١٣٤٧)،والنسائي في الكبرى (٨٠٦٧)،والدارمي (١٤٩٣)، وابن حبان (٧٥٨)، والبيهقي في الشعب (١٩٨١)، وفي السنن الصغرى (٧٧٦). وصححه الألباني والأرنؤوط.

[2] - شعب الإيمان (٤٧٥/٣).

[3] - أخرجه البيهقي في الشعب (٣٤٤/١)، والآجري في أخلاق حملة القرآن ص١٩، وأورده البغوي في التفسير (٤٠٧/٤).

[4] - مختصر قيام الليل ص١٥٠.

[5] - التبيان ص٦٥.

[6] - الجامع لأحكام القرآن (١٩٢/١٥).

[7] - فضائل القرآن ص١٢٥.

الذي لا يخل بما هو فيه، ومن لم يكن كذلك فالأولى له الاستكثار ما أمكنه من غير خروج إلى الملل، ولا يقرؤه هذرمة[1].

وقال الشنقيطي رحمه الله تعليقاً على قول أبي موسى الأشعري رضي الله عنه:"لو كنت أعلم أنك تسمع قراءتي لحبرته لك تحبيرًا ": قال: "وهذا الوصف هو الذي يتأتى منه الغرض من التلاوة، وهو التدبر والتأمل، كما في قوله تعالى﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [النساء: ٨٢]، كما أنه هو الوصف الذي يتأتى معه الغرض من تخشع القلب كما في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾[الزمر: ٢٣]، ولا تتأثر به القلوب والجلود إلا إذا كان مرتلاً، فإذا كان كالشِّعر أو الكلام العادي لما فهم، وإذا كان مطربًا كالأغاني لما أثَّر . فوجب الترتيل كما بين صلى الله عليه وسلم[2]"ا.هـ.

وبناء على ذلك يحسن أن يكون للمسلم قراءة يتدبر فيها ولو قلَّت إن لم يجعل قراءته كلها لذلك.

فيكون له وِرْد للمراجعة أو الحفظ، وآخر للتدبر، فإن أبى فَوِرْد للحفظ أو المراجعة، وآخر للتلاوة والختم، وثالث للتدبر.

د . تكرار الآية أو الآيات أو السورة القصيرة:

فإذا أراد القارئ أن يتدبر موضعًا من كتاب الله تعالى يجد فيه عبرة أو عظة لقلبه فإنه يكرر تلاوته ويردده حتى يحصل مقصوده، ولو اقتصر عليه في مجلسه أو ليلته بكاملها.

قال ابن القيم رحمه الله:" فإذا قرأه بتفكر حتى إذا مر بآية وهو محتاج إليها في شفاء قلبه، كررها ولو مائة مرة، ولو ليلة، فقراءة آية بتفكر وتفهم خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهم، وأنفع للقلب، وأدعى إلى حصول الإيمان، وذوق حلاوة القرآن[3]".

قال في الإحياء:" وإن لم يحصل التدبر إلا بترديد الآية فليرددها[4]"ا.هـ.

وقد قال أبو ذر رضي الله عنه:" قام النبي صلى الله عليه وسلم بآية حتى أصبح، يرددها، والآية: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[المائدة: ١١٨] "[1].

---

[1] - التبيان ص٢٨.
[2] - أضواء البيان (٤٧٦/٨).
[3] - مفتاح دار السعادة ص ١٨٧.
[4] - الإحياء (٢٨٢/١) (بتصرف يسير).

وهكذا كانت عادة السلف رضي الله عنهم[2].

عن عباد بن حمزة رحمه الله قال: "دخلت على أسماء رضي الله عنها وهي تقرأ: ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾[الطور: ٢٧]، فوقفت عندها، فجعلت تعيدها وتدعو، فطال علي ذلك فذهبت إلى السوق، فقضيت حاجتي ثم رجعت وهي تعيدها وتدعو[3]".

وقام تميم الداري رضي الله عنه بآية حتى أصبح، وهي قوله: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾[الجاثية: ٢١].[4] فلم يزل يكررها ويبكي حتى أصبح وهو عند المقام. وكذلك قام بها الربيع بن خثيم[5].

وردد الحسن البصري رحمه الله ليلة: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [النحل: ١٨]. حتى أصبح فقيل له في ذلك، فقال: إن فيها معتبرًا، ما نرفع طرفًا ولا نرده إلا وقع على نعمة، وما لا نعلمه من نعم الله أكثر[6].

وعن سعيد بن جبير رحمه الله أنه ردد قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨١]، بضعاً وعشرين مرة. وردد قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴾ [غافر: ٧٠ – ٧١]. وروي عنه أنه أحرم بنافلة فاستفتح: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴾ [الانفطار:١]، فلم يزل فيها حتى نادى منادي السَّحَر.

وعن الضحاك رحمه الله أنه ردد قوله تعالى: ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ [الزمر: ١٦].

وعن عامر بن عبد القيس رحمه الله أنه قرأ في ليلة سورة المؤمن، فلما انتهى إلى قوله: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ﴾[غافر: ١٨]، فلم يزل يرددها حتى أصبح. ونُقل عنه أن قرأ قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا ﴾ [الأنعام: ٢٧]، فجعل يبكي ويرددها حتى أسحر.

وقال محمد بن كعب رحمه الله: لأن أقرأ: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾[الزلزلة: ١]، و ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴾[القارعة: ١]، أرددهما وأتفكر فيهما أحب من أن أبيت أَهُذ القرآن.

---

[1] - رواه النسائي (١٠١٠)، ابن ماجه (١٣٥٠)، وأحمد (٢١٣٢٨، ٢١٣٨٨)، وابن أبي شيبة (٨٣٦٨، ٣١٧٦٧)، والحاكم (٨٧٩)، وابن خزيمة (١٢٠)، والبيهقي في الشعب (٧٥٧، ١٨٧٩، ١٨٨٠)، وفي السنن (٤٤٩٣، ٤٤٩٤)، وحسنه الألباني والأرنؤوط.

[2] - انظر: الأذكار للنووي ص١٥٠، مفتاح دار السعادة ص٢٢٢.

[3] - مختصر قيام الليل ص١٤٩.

[4] - أخرجه ابن المبارك في الزهد (٩٤)، وابن أبي شيبة (٣٦٢/٢)، وعبدالله بن أحمد في زوائد الزهد ص١٨٢، والطبراني في الكبير (١٢٣٦، ١٢٣٧).

[5] - مصنف ابن أبي شيبة (٣٦٢/٢)، (٢٠٨/٨)، وابن سعد في الطبقات (١٨٦/٦، ١٨٧)، وأبو نعيم في الحلية (١١٢/٢).

[6] - مختصر قيام الليل ص١٥١.

وقال زائدة رحمه الله: صليت مع أبي حنيفة في مسجده عشاء الآخرة، وخرج الناس، ولم يعلم أني في المسجد، وأردت أن أسأله مسألة من حيث لا يراني أحد، قال: فقام فقرأ، وقد افتتح الصلاة، حتى بلغ إلى هذه الآية ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾[الطور: ٢٧]، فأقمت في المسجد أنتظر فراغه، فلم يزل يرددها حتى أذن المؤذن لصلاة الفجر[1].

وقال رجل لابن المبارك رحمه الله: قرأت البارحة القرآن في ركعة، فقال: لكني أعرف رجلاً لم يزل البارحة يقرأ ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾[التكاثر: ١]، إلى الصبح، ما قدر أن يجاوزها، يعني نفسه[2].

عن عبد الرحمن بن عجلان رحمه الله قال:" بت عند الربيع بن خثيم ذات ليلة فقام يصلي، فمر بهذه الآية ﴿ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [الجاثية: ٢١]، فمكث ليلته حتى أصبح ، ما جاوز هذه الآية إلى غيرها، ببكاء شديد[3]".

بل جاء عن بعض السلف أنه بقي في سورة هود ستة أشهر يكررها ولا يفرغ من التدبر فيها.

وقال بعضهم: لي في كل جمعة ختمة، وفي كل شهر ختمة، وفي كل سنة ختمة، ولي ختمة منذ ثلاثين سنة ما فرغت منها بعد.[4]

ذِكْرُ جملة من الأمور المُعِينة على التدبر مما يكون مُشْتَرَكاً بين الاستماع والتدبر:

١ . إدراك أهمية التدبر وفائدته:

قال الحافظ ابن القيم رحمه الله :"فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر[5]".

والحديث عن هذا المعنى يُذكر عادة في المقدمات، وليس هذا موضع تفصيله، فيُرجع إليه في مَظَانِّه، لكن المراد هنا التنبيه على أن من لا يدرك أهمية التدبر فإنه لن يلتفت إليه.

---

[1] - تاريخ بغداد (٣٥٧/١٣).
[2] - تاريخ دمشق (٤٣٥/٣٢).
[3] - الحلية (١١٢/٢).
[4] - الإحياء (٢٨٢/١).
[5] - مفتاح دار السعادة ص١٨٧.

٢ . استحضار عظمة المتكلم بالقرآن:

فإذا كان الإنسان يتمعن كثيراً حينما يقرأ خطاب من يُعظِّمه من البشر، ويقف مع كل حرف فيه، ويتأمل في مضامينه، فإن كلام الله تعالى أولى بذلك وأحق لدى أصحاب القلوب الحية.

قال ابن قدامة رحمه الله:" وليعلم أن ما يقرأه ليس كلام بشر، وأن يستحضر عظمة المتكلم سبحانه، ويتدبر كلامه؛ فإن التدبر هو المقصود من القراءة"[١] ا.هـ.

٣ . ما ينبغي أن تكون عليه تصوراتنا ونظرتنا للقرآن:

إن النظرة القاصرة،وفساد التصور تجاه القرآن الكريم يُقْعِدان صاحبهما عن تدبر كتاب الله تعالى، وطلب الهدى منه؛ وذلك حينما ينظر بعضهم إلى القرآن باعتبار أنه مجرد كتاب مقدس يُتلى لتحصيل الأُجور، وربما لمجرد تحصيل البركة فيضع المصحف في بيته أو مركبته، أو أنه ملجأ أرباب العلل والأدواء فيسترقون به لكشف ما ألَمَّ بهم، أو أنه إنما يقرأ – مجرد قراءة – في المآتم أو افتتاح بعض المناسبات، أو أنه نزل ليعالج بيئة مُتَخَلِّفة يعبد أهلها الأصنام فدعاهم إلى تركها وعبادة الله وحده دون ما سواه، فهو يعالج تلك الحقبة الغابرة، ولا تعلق له بالواقع المعاصر وتعقيداته!! إلى غير ذلك من التصورات الضيقة.

فمن كانت هذه نظرته إلى هذا الكتاب فلا يُظَن به أنه سَيُقْبِل عليه بتدبر وتفهم ليستخرج من كنوزه و هداياته، إذ الناس – كما قيل – أسرى لأفكارهم ومعتقداتهم.

والله تعالى قد أخبر عن هذا الكتاب بقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[النحل: ٨٩].

واتل بفهم كتاب الله فيه أتت كل العلوم تدبره تر العجبا[٢]

فينبغي النظر إليه باعتبار أنه كتاب هداية ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩]. يُحيي الله به موتى الأرواح ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[الأنعام: ١٢٢]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[الأنفال: ٢٤]. ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١].

---

[١] - مختصر منهاج القاصدين ص٦٨ وانظر الإحياء (٢٨٢/١).
[٢] - الجامع لأحكام القرآن (١٤/١).

وإذا أردت أن تعرف عظمة هذا القرآن، وما يُؤَثِّره ويعالجه في النفوس والمجتمعات فتأمل ما وصفه الله تعالى به في مواضع كثيرة حيث وصفه بأنه كريم، وحكيم، وعظيم، ومجيد، ومبارك، وعزيز، ومهيمن، وعلي، وهدى، ورحمة، وشفاء، ونور، وذِكْر، وموعظة، وروح، وتفصيل كل شيء، وبصائر، وأنه حق، وبرهان، إلى غير ذلك من الأوصاف.

كما سماه بالفرقان لأنه يفرق بين الهدى والضلال والحق والباطل، وبالقرآن (قيل: لأنه جمع ثمرة الكتب قبله).

فالواجب أن يُقبل المسلم على كتاب ربه إقبالاً يليق بهذا القرآن العظيم، " ويعرف أنه سِيْق لهداية الخلق كلهم، عالِمِهم وجاهلهم، حضريهم وبدويهم، .... فمن وُفِّق لذلك لم يبق عليه إلا الإقبال على تدبره وتَفَهُّمه، وكثرة التفكر في ألفاظه ومعانيه، ولوازمه وما تتضمنه... وما يدل عليه منطوقًا ومفهومًا، فإذا بذل وسعه في ذلك فالرب أكرم من عبده، فلابد أن يفتح عليه من علومه أمورًا لا تدخل تحت كسبه[1] ".

قال ابن القيم رحمه الله:" هو أعظم الكنوز، وطلسمه الغوص بالفكر إلى قرار معانيه [2]" ا.هـ.

فتدبر القرآن إن رُمْتَ الهدى فالعلم تحت تدبر القرآن[3]

٤ . استحضار أنك المخاطب بهذا القرآن .

قال ابن مسعود رضي الله عنه:" إذا سمعت الله يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾فأصغ لها سمعك، فإنه خير تُؤمر به، أو شر تُصرف عنه[4] ".

وقال الحسن رحمه الله:" إن من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم، فكانوا يتدبرونها بالليل، ويتفقدونها في النهار[5]".

قال محمد بن كعب القرظي رحمه الله:"من بلغه القرآن فكأنما كلَّمه الله". وعقبه في الإحياء بقوله:" وإذا قَدَّر ذلك لم يتخذ قراءة القرآن عَمَلَه، بل يقرؤه كما يقرأ العبد كتاب مولاه، الذي كتبه إليه؛ ليتأمله ويعمل بمقتضاه[6]".

وقال الخَوَّاص رحمه الله:" قلت لنفسي: يا نفس اقرئي القرآن كأنك سمعتيه من الله حين تكلم به، فجاءت الحلاوة[1]".

---

[1] - تفسير السعدي ص١٢.
[2] - المدارج (٤٥٣/١).
[3] - النونية ص٣٦.
[4] - سنن سعيد بن منصور (التفسير)، (٥٠ ، ٨٤٨).
[5] - التبيان ص٢٨.
[6] - الإحياء (٢٨٥/١).

قال ابن القيم رحمه الله:" إذا أردت الانتفاع بالقرآن، فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألق سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به - سبحانه- منه إليه؛ فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله[2]" ا.هـ.

"فيُقَدِّر أنه المقصود بكل خطاب في القرآن، فإن سمع أمراً أو نهياً قَدَّر أنه المنهي والمأمور، وإن سمع وعداً أو وعيداً فكذلك، وإن سمع قصص الأولين والأنبياء علم أن السَّمَر غير مقصود، وإنما المقصود أن يعتبر بها، ويأخذ من تضاعيفها ما يحتاج إليه، وإذا قُصد بالخطاب جميع الناس، فهذا القارئ الواحد مقصود، فما له ولسائر الناس، فليقدر أنه المقصود، قال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾[الأنعام: ١٩][3].

فإذا استجمع هذه الأمور فإن ذلك يقوده إلى ما بعدها، فمن ذلك:

٥ . صدق الطلب والرغبة، وقوة الإقبال على كتاب الله عز وجل.

قال القرطبي رحمه الله:" فإذا استمع العبد إلى كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم بنية صادقة على ما يحب الله أفهمه كما يحب، وجعل في قلبه نورا[4]" ا.هـ.

وهذا يتطلب قدراً من الصبر والإصرار. قال ثابت البناني رحمه الله:" كابدت القرآن عشرين سنة ثم تنعمت به عشرين سنة[5]".

٦ . يقرأ ليمتثل.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾[البقرة: ١٢١].

قال ابن مسعود رضي الله عنه:"والذي نفسي بيده : إن حق تلاوته أن يحل حلاله، ويحرم حرامه، ويقرأه كما أنزله الله[6]".

وقال الحسن البصري رحمه الله:" إن هذا القرآن قد قرأه عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله...، وما تدبر آياته إلا باتباعه، وما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: لقد قرأت القرآن كله فما أسقطت منه حرفاً، وقد والله أسقطه كله، ما يُرى القرآن له في خُلُق ولا عمل، حتى إن أحدهم ليقول: إني لأقرأ السورة في

---

[1] - السير(١٥/١٧٧).
[2] - الفوائد ص٣.
[3] - الإحياء (١/٢٨٥) بشيء من الاختصار والتصرف.
[4] - الجامع لأحكام القرآن (١١/١٧٦).
[5] - الإحياء (١/٢٨٨ ، ٣٠٢).
[6] - تفسير ابن كثير (١/٤٠٣).

نَفَس! والله ما هؤلاء بالقراء، ولا بالعلماء، ولا الحكماء، ولا الوَرَعَة، متى كان القراء مثل هذا؟ لا كثر الله في الناس مثل هؤلاء[1]".

وقال رحمه الله:" أُمِر الناس أن يعملوا بالقرآن فاتخذوا تلاوته عملاً [2]".

وقال رحمه الله:" إن أولى الناس بهذا القرآن من اتبعه وإن لم يكن قرأه[3]".

قال الفضيل رحمه الله: " إنما نزل القرآن ليعمل به فاتخذ الناس قراءته عملاً، قيل: كيف العمل به؟ قال: ليحلوا حلاله، ويحرموا حرامه، ويأتمروا بأوامره، وينتهوا عن نواهيه، ويقفوا عند عجائبه"[4].

وقد كان السلف رضي الله عنهم لا يتجاوزون الآيات حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: (كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن).

وجاء نحوه عن أبي عبد الرحمن السلمي .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال:" إن أقواماً يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع"[5].

"فالمؤمن العاقل إذا تلا القرآن استعرض القرآن، فكان كالمرآة يرى بها ما حسن من فعله وما قبح فيه، فما حذَّره مولاه حذره، وما خوَّفه به من عقابه خافه، وما رغَّب فيه مولاه رغب فيه ورجاه؛ فمن كانت هذه صفته، أو ما قارب هذه الصفة فقد تلاه حق تلاوته، ورعاه حق رعايته، وكان له القرآن شاهداً وشفيعاً، وأنيساً وحِرْزاً؛ ومن كان هذا وَصْفه نفع نفسه ونفع أهله، وعاد على والديه وعلى ولده كل خير في الدنيا والآخرة"[6] ،" وكان القرآن له شفاء، فاستغنى بلا مال، وعزَّ بلا عشيرة، وأنس مما يستوحش منه غيره، وكان همُّه عند التلاوة للسورة إذا افتتحها: متى أتعظ بما أتلوه؟ ولم يكن مراده: متى أختم السورة؟ وإنما مراده: متى أعقل عن الله الخطاب، متى أزدجر، متى اعتبر ؟ لأن تلاوة القرآن عبادة، والعبادة لا تكون بغفلة"[7].

---

[1] - سنن سعيد بن منصور (٤٢٠/٢)، الزهد لابن المبارك (٢٧٤/١)، البيهقي في الشعب (٥٤١/٢).
[2] - تفسير ابن جرير (٨٠/١).
[3] - قاعدة في فضائل القرآن لابن تيمية ص٥٩.
[4] - اقتضاء العلم العمل للخطيب ص٧٦.
[5] - رواه مسلم (١٨٥٨)، ونحوه في البخاري (٢٣٨/٦).
[6] - أخلاق حملة القرآن ص٨١.
[7] - السابق ص٣٦.

فالمسلم "يتصفح القرآن ليُؤدِّب به نفسه، هِمَّتُه متى أكون من المتقين؟ متى أكون من الخاشعين؟ متى أكون من الصابرين؟ متى أزهد في الدنيا؟ متى أنهى نفسي عن الهوى"[1].

قال يزيد بن الكُميت رحمه الله: قرأ بنا علي بن الحسين المُؤَذِّن في عشاء الآخرة ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾[الزلزلة: ١]، وأبو حنيفة خلفه فلما قضى الصلاة وخرج الناس نظرت إلى أبي حنيفة وهو جالس يُفَكِّر ويتنفس، فقلت: أقوم لا يشتغل قلبه بي، وقد طلع الفجر وهو قائم قد أخذ بلحية نفسه وهو يقول: يا من يجزي بمثقال ذرة خير خيرا، ويا من يجزي بمثقال ذرة شر شرا أجِرِ النعمان عبدَك من النار وما يُقَرِّب منها من السوء، وأدخله في سعة رحمتك.

قال في الإحياء:" وتلاوة القرآن حق تلاوته هو أن يشترك اللسان والعقل والقلب، فحظ الملسان: تصحيح الحروف بالترتيل، وحظ العقل: تفسير المعاني، وحظ القلب: الاتعاظ والتأثر بالانزجار والائتمار.

فاللسان يرتل، والعقل يترجم، والقلب يتعظ"[2] ا.هـ

قال: فأذنت فإذا القنديل يزهر وهو قائم، فلما دخلت، قال: تريد أن تأخذ القنديل، قلت: قد أذنت لصلاة الغداة، قال اكتم عليَّ ما رأيت[3].

" وينبغي للتالي أن يستوضح كل آية ما يليق بها، ويتفهم ذلك، فإذا تلا قوله تعالى:﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[الأنعام: ١]، فليعلم عظمته و يتلمح قدرته في كل ما يريد، وإذا تلا: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾[الواقعة: ٥٨]، فليتفكر في نُطفة متشابهة الأجزاء كيف تنقسم إلى لحم وعظم، ... وإذا تلا أحوال المعذبين فليستشعر الخوف من السطوة إن غفل عن امتثال الأمر. وينبغي لتالي القرآن أن يعلم أنه المقصود بخطاب القرآن و وعيده، وأن القصص لم يُرِد بها السَّمَر بل العبر، فحينئذ يتلو تلاوة عبد كَاتَبَه سيده بمقصود، وليتأمل الكتاب، وليعمل بمقتضاه"[4].

و وصف السيوطي رحمه الله الوقوف عند المعاني بقوله:" أن ينشغل قلبه بالتفكر في معنى ما يلفظ به، فيعرف كل آية، ويتأمل الأوامر والنواهي، ويعتقد قبول ذلك؛

---

[1] - السابق ص٧٩ (باختصار).
[2] - الإحياء (٢٨٧/١).
[3] - تاريخ بغداد (٣٥٧/١٣).
[4] - مختصر منهاج القاصدين ص٦٨ ، وانظر: الإحياء (٢٨٣/١).

فإن كان مما قصر عنه فيما مضى اعتذر واستغفر، وإذا مر بآية رحمة استبشر وسأل، أو عذاب أشفق وتعوّذ، أو تنزيه نزّه وعظّم، أو دعاء تضرع وطلب"[1].

٧ . تنزيل القرآن على الواقع.

إذا تقرر ما سبق فإنه يتعين على قارئ القرآن أن يستصحب الأحوال والملابسات التي نزل فيها القرآن، وكيف كان يعالج المواقف والوقائع حتى أخرج ذلك المجتمع والجيل الراشد الذي اهتدى بالقرآن وحمل هداياته إلى نواحي المعمورة، وحقق انتشارًا وانتصارًا مُبْهِرًا في مدة قياسية قصيرة.

واليوم القرآن هو القرآن، والناس هم الناس، والصراع بين الحق والباطل قائم، والمواقف متكررة وإن تغيرت الأسماء، فما علينا إلا أن نعي كتاب الله تعالى ونتدبره، وعندئذ سنجد فيه ما يعيد الحق إلى نصابه، والعالَم إلى صوابه، فيتحرك دولاب التغيير من جديد كما كان في عهد الصحابة رضي الله عنهم، وذلك حينما نُحرِّر نصوص القرآن من قيد الزمان والمكان. والله المستعان.

وأما حضور القلب:

فلا يخفى أن تلاوة القرآن أو سماعه لا يمكن أن يحصل معها تدبر أو اعتبار إذا كان القلب غائبًا؛ لأنه موضع العقل، وقد مضى قول الحافظ ابن القيم رحمه الله:" إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألق سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه، فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله"[2] ا.هـ.

وقال الخازن رحمه الله:" وتدبر القرآن لا يكون إلا مع حضور القلب، وجمع الهم وقت تلاوته. ويشترط فيه تقليل الغذاء من الحلال الصرف، وخلوص النية "[3] ا.هـ .

وما ذكرته في الشرط الأول – وهو وجود المحل القابل – له اتصال وثيق بهذا الموضع، إلا أن بينهما عموماً وخصوصاً من وجه، فقد يكون صاحب القلب الحي مُشَوَّشاً أو مشغولاً، أو في موضع لا يتمكن معه من إحضار قلبه حال السماع أو التلاوة، فيقرأ الآيات أو السورة ويتجاوزها وهو لا يشعر؛ لأن قلبه لم يحضر معه لعارض.

---

[1] - الإتقان (١٤٠/١).
[2] - الفوائد ص٣.
[3] - الخازن (١٨٢/٦).

وقد لا يكون القارئ أو المستمع من أصحاب القلوب الحية، لكنه لم يُطبع على قلبه، فإذا استمع أو قرأ مع حضور القلب فإنه ينتفع.

الشرط الثالث: وجود قدر من الفهم للكلام المقروء أو المسموع:

من المعلوم أن الفهم قضية نسبية، يقع فيها التفاوت كثيراً، والناس فيها على ثلاث مراتب، ومن هنا حصل التفاوت بينهم في العلم والفقه.

ونحن لا نطالب العامي أن يفهم منه ما يفهم ابن عباس رضي الله عنهما، وإنما المقصود هنا حصول حد أدنى من الفهم لما يقرأ أو يسمع؛ بحيث لا يكون بمنزلة من خُوطِب بلغة غير لغته لا يعرفها، فإن من خُوطِب بما لا يفهم أصلاً لا يمكن أن يتدبر مهما كان قلبه حيًا، وأحضره حال الاستماع أو التلاوة.

ومن هنا يتعين علينا أن ننظر إلى هذا الشرط بنوع اعتدال، فلا نشترط منه قدرًا لا يصدق إلا على العلماء، ولا نلغيه بالكلية فنطالب من كان بمنزلة الأعجمي أن يتدبر القرآن، وقد وصف الله تعالى كتابه بقوله: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[فصلت: ٣]، وقال: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[الشعراء: ١٩٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾[فصلت: ٤٤]، وقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[يوسف: ٢]، إلى غير ذلك من الآيات الكريمات، كما أخبر أنه يسَّره للذِّكر فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[القمر: ١٧]،وقد سبقت الإشارة إلى العموم الوارد في الحث على تدبره ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[ص: ٢٩]، ولم يخص ذلك بأهل العلم دون غيرهم . مع أن ما يحصل للعالم من ذلك لا يقاس بما يحصل لغيره.

قال ابن جرير رحمه الله:" وقد حث الله – عز وجل – على التدبر والاعتبار بما في آي القرآن من المواعظ فقال:﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[ص: ٢٩]، وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[محمد: ٢٤]، وقال: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[الزمر: ٢٧]، ففي مثل هذه الآيات ونحوها دليل على وجوب معرفة معاني القرآن، والاتعاظ بمواعظه، وفقه ما فيه من الهداية والرشاد، ولا يقال

لمن لا يفهم تفسيره: اعتبر بما لا فهم لك به، ولا يقال ذلك إلا لمن كان بمعاني القرآن بصيراً، وبكلام العرب عارفا"[1] ا.هـ.

وكان رحمه الله يقول:" إني لأعجب ممن قرأ القرآن ولم يعلم تأويله كيف يلتذ بقراءته"[2] ا.هـ.

وقال الزجاج رحمه الله تعليقاً على قوله تعالى:﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾[ق: ٣٧]:"من صرف قلبه إلى التفهم"[3] ا.هـ.

وقال القرطبي رحمه الله:" وينبغي له أن يتعلم أحكام القرآن، فيفهم عن الله مراده، وما فرض عليه، فينتفع بما يقرأ، ويعمل بما يتلو، فكيف يعمل بما لا يفهم معناه؟! وما أقبح أن يُسأل عن فقه ما يتلوه ولا يدريه، فما مثل من هذا حاله إلا كمثل الحمار يحمل أسفاراً"[4] ا.هـ.

وقال الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله: " وتدبُّر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن؛ ولذلك قال تعالى:﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[يوسف: ٢]، وعقل الكلام متضمن لفهمه، ومن المعلوم أن كل كلام فالمقصود منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه، فالقرآن أولى بذلك"[5] ا.هـ.

وقال الشنقيطي رحمه الله: "فإذا علمت - أيها المسلم - أن هذا القرآن العظيم هو النور الذي أنزله الله ليستضاء به، ويُهْتَدى بهداه في أرضه فكيف ترضى لبصيرتك أن تعمى عن النور ... يجب عليك الجد والاجتهاد في تعلم كتاب الله، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم بالوسائل النافعة المنتجة، والعمل بكل ما علمك الله منهما علماً صحيحاً"[6] ا.هـ

وكلام أهل العلم في هذا المعنى كثير جداً، لا حاجة للتطويل بإيراده ونَقْلِه.

أما من أراد الغَوص في المعاني، واستخراج نفائس الجواهر و اللآلئ فإنه بحاجة إلى معرفة بعلوم العربية بأنواعها، إلى غير ذلك من العلوم المساعدة في التفسير، مع طول النظر في كلام السلف في التفسير، وكثرة القراءة في كتب التفسير التي تميز مؤلفوها بالتحقيق والتأصيل، والقدرة البارعة على الجمع بين الأقوال أو الترجيح، أو

---

[1] - جامع البيان (٨٣/١). (مع الاختصار والتصرف).
[2] - معجم الأدباء (٦٣/١٨).
[3] - معاني القرآن (٤٨/٥).
[4] - الجامع لأحكام القرآن (٢١/١).
[5] - الفتاوى (٣٣٢/١٣).
[6] - أضواء البيان (٢٦٣/٧ - ٢٦٤).

التوجيه، كأبي جعفر بن جرير، والحافظ ابن كثير، وأضواء البيان، مع ما جُمع من كلام الإمامين – ابن تيمية، وابن القيم – في التفسير. فإن سَاعَد مع ذلك وجود المَلَكَة، وتَوَقُّد القريحة فذاك كنور العين مع ضوء الشمس، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:" لابد في تفسير القرآن والحديث من أن يعرف ما يدل على مراد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم من الألفاظ، وكيف يفهم كلامه؛ فمعرفة العربية التي خُوطبنا بها مما يعين على أن نفقة مراد الله ورسوله بكلامه، وكذلك معرفة دلالة الألفاظ على المعاني؛ فإن عامة ضلال أهل البدع كان بهذا السبب؛ فإنهم صاروا يحملون كلام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم على ما يدَّعون أنه دال عليه، ولا يكون الأمر كذلك"[1].

ومما سبق يتضح لنا أمران:

الأول: أن الناس متفاوتون في التدبر[2].

قال ابن القيم رحمه الله:" والمقصود تفاوت الناس في مراتب الفهم في النصوص، وأن منهم من يفهم من، الآية حكما أو حكمين، ومنهم من يفهم عشرة أحكام أو أكثر من ذلك، ومنهم من يقتصر في الفهم على مجرد اللفظ دون سياقه، ودون إيمائه وإشارته وتنبيهه واعتباره، وأخص من هذا وألطف ضمه إلى آخِر نص متعلق به، فيفهم من اقترانه به قدراً زائداً على ذلك اللفظ بمفرده، وهذا باب عجيب من فهم القرآن لا ينتبه له إلا النادر من أهل العلم؛ فإن الذهن قد لا يشعر بارتباط هذا بهذا وتعلقه به، وهذا كما فهم ابن عباس رضي الله عنهما من قوله:﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾[الأحقاف: ١٥]، مع قوله:﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، أن المرأة قد تلد لستة أشهر، وكما فهم الصِّدِّيق من آية الفرائض في أول السورة وآخرها أن الكلالة من لا ولد له ولا والد"[3] ا.هـ.

الثاني: أن التدبر لا يختص بالعلماء.

يقول الصنعاني رحمه الله:"أن الله- سبحانه- كمَّل عقول العباد، ورزقهم فهم كلامه. ثم إن فهم كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية عند قرعها الأسماع لا يحتاج في معناها إلى علم النحو، ولا إلى علم الأصول، بل في الأفهام والطباع والعقول

---

[1] - الفتاوى (١١٦/٧).
[2] - انظر: فيض القدير (٧١٧/١).
[3] - إعلام الموقعين (٣٥٤/١).

ما يجعلها تسارع إلى معرفة المراد؛ فإن من قرع سمعه قوله – تعالى–:﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ ﴾ [البقرة:١١٠]، يفهم معناه من دون أن يعرف أن (ما) كلمة شرط، و (تقدموا) مجزوم بها لأنه شرطها، و(تجدوه) مجزوم بها لأنه جزاؤها، ومثلها كثير. ثم إنك ترى العامة يستفتون العالم ويفهمون كلامه وجوابه وهو كلام غير معرب في الأغلب، بل تراهم يسمعون القرآن فيفهمون معناه ويبكون لقوارعه وما حواه، ولا يعرفون إعراباً، ولا غيره، بل ربما كان موقع ما يسمعونه في قلوبهم أعظم من موقعه في قلوب من حقق قواعد الاجتهاد، وبلغ الذكاء والانتقاد. ثم إن هؤلاء العامة يحضرون الخطب في الجمع والأعياد، ويذوقون الوعظ ويفهمونه ويفتت منهم الأكباد، وتدمع منهم العيون، فيكثر منهم البكاء والنحيب. ثم إنك تراهم يقرؤون كتباً مؤلفة من الفروع الفقهية ويفهمون ما فيها، ويعرفون معناها، ويعتمدون عليها، ويرجعون في الفتوى والخصومات إليها.

فيا ليت شعري! ما الذي خص الكتاب والسنة بالمنع عن معرفة معانيها، وفهم تراكيبها ومبانيها، والإعراض عن استخراج ما فيها، حتى جعلت معانيها كالمقصورات في الخيام، قد ضربت دونها السجوف، ولم يبق لنا إليها إلا ترديد ألفاظها والحروف، وأن استنباط معانيها قد صار حِجْراً محجوراً، وحرماً محرماً محصوراً؟!"[1] .

وأما انتفاء الموانع:

فإن ما ذُكر من الشروط الأصلية أو ما يتفرع عنها إذا تخلف شيء منها كان ذلك عائقاً دون التدبر، وبذلك نستطيع أن نتعرف على كثير من معوقات التدبر .

ولا بأس هنا أن أُشير إلى جملة منها على سبيل الإيجاز:

١ . عدم وجود المَحَل القابل، أو ضعفه:

[1] - إرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد ص١٥٩-١٦٠(مع الاختصار والتصرف).

تتنوع القلوب وتختلف أوصافها بحسب ما يقوم بها من الإيمان أو الكفر أو النفاق، أو غير ذلك من الأدواء التي قد تحول دون التدبر بالكلية، وقد تضعفه وتوهنه.

أما ما يصرفه بالكلية: فالطبع والختم وما في معناهما[1] - كما سبق- فيصير العبد في الحال التي وصفها الله تعالى بقوله: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴾[يونس: ٤٢ – ٤٣]، وقوله: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[الأنعام: ٢٥].

وقد شرح الحافظ ابن القيم رحمه الله هذه الحُجب، وحاصل ما ذكر[2]:

أما الأكِنَّة: ... وهي جمع كِنَان، ... وأصله من الستر والتغطية... وهو كالغلاف، وقد أقروا على أنفسهم بذلك فقالوا: ﴿ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾[فصلت: ٥]، فذكروا غطاء القلب وهي الأكنة، وغطاء الأذن وهو الوقر، وغطاء العين وهو الحجاب. والمعنى: إنا في ترك القبول منك بمنزلة من لا يفقه ما تقول، ولا يراك....

وأما الغطاء: فقال تعالى: ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾[الكهف: ١٠٠ – ١٠١]، وهذا يتضمن معنيين:

أحدهما: أن أعينهم في غطاء عما تضمنه الذكر من آيات الله وأدلة توحيده وعجائب قدرته.

والثاني: أن أعين قلوبهم في غطاء عن فهم القرآن وتدبره والاهتداء به. وهذا الغطاء للقلب أولاً، ثم يسري منه إلى العين...

وأما الغلاف: فقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة: ٨٨]،وقد اختُلف في معنى قولهم: (قلوبنا غلف)... والصحيح قول أكثر المفسرين: أن المعنى: قلوبنا لا تفقه ولا تفهم ما تقول.

وعلى هذا فهو جمع أغلف... قال ابن عباس وقتادة ومجاهد: على قلوبنا غشاوة، فهي في أوعية، فلا تعي ولا تفقه ما تقول. وهذا هو الصواب في معنى الآية لتكرر نظائره في القرآن...

---

[1] - ينظر على سبيل المثال: مجموع الفتاوى (٩/٣١٢-٣١٢).
[2] - شفاء العليل (١/٩٣- ٩٤).

فإن قيل: فالإضراب ببل على هذا القول الذي قويتموه ما معناه؟ ...

قيل: وجه الإضراب في غاية الظهور، وهو أنهم احتجوا بأن الله لم يفتح لهم الطريق إلى فهم ما جاء به الرسول ومعرفته، بل جعل قلوبهم داخلة في غلف فلا تفقهه، فكيف تقوم به عليهم الحجة؟ وكأنهم ادعوا أن قلوبهم خُلقت في غُلف، فهم معذورون في عدم الإيمان، فأكذبهم الله وقال:﴿ بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ ﴾[النساء: ١٥٥]، وفي الآية الأخرى:﴿ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ ﴾ [البقرة: ٨٨]، فأخبر سبحانه أن الطبع والإبعاد عن توفيقه وفضله إنما كان بكفرهم الذي اختاروه لأنفسهم وآثروه على الإيمان، فعاقبهم عليه بالطبع واللعنة. والمعنى: لم نخلق قلوبهم غُلفا لا تعي ولا تفقه ثم نأمرهم بالإيمان وهم لا يفهمونه ولا يفقهونه، بل اكتسبوا أعمالا عاقبناهم عليها بالطبع على القلوب والختم عليها...

وأما الحجاب: ففي قوله تعالى حكاية عنهم:﴿ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ ﴾[فصلت: ٥]، وقوله:﴿ وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا ﴾[الإسراء: ٤٥]، على أصح القولين. والمعنى: جعلنا بين القرآن إذا قرأته وبينهم حجاباً يحول بينهم وبين فهمه وتدبره والإيمان به. ويبينه قوله:﴿ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗا ﴾[الإسراء: ٤٦]، وهذه الثلاثة هي الثلاثة المذكورة في قوله:﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴾[فصلت: ٥]، فأخبر سبحانه أن ذلك جَعْله، فالحجاب يمنع رؤية الحق، والأكنة تمنع من فهمه، والوقر يمنع من سماعه...

وأما الران: فقد قال تعالى:﴿ كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾[المطففين: ١٤]، ... قال أبو معاذ النحوي: الرين: أن يَسْوَد القلب من الذنوب. والطبع: أن يُطبع على القلب، وهو أشد من الرين. والإقفال: أشد من الطبع، وهو أن يُقفل على القلب.

وقال الفراء: كثرت الذنوب والمعاصي منهم فأحاطت بقلوبهم فذلك الرين عليها....

وأما الرين والران: فهو من أغلظ الحُجب على القلب وأكثفها. وقال مجاهد: هو الذنب على الذنب حتى تُحيط الذنوب بالقلب وتغشاه فيموت القلب. وقال مقاتل: غمرت القلوب أعمالُهم الخبيثة. وفي سنن النسائي والترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" أن العبد إذا أخطأ خطيئة نُكتت في قلبه نكتة سوداء فإن هو نزع واستغفر وتاب صُقِل قلبه، وإن زاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، وهو الران الذي ذكر الله﴿ كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾[المطففين: ١٤]، قال

الترمذي هذا حديث صحيح. وقال عبد الله بن مسعود:"كلما أذنب نُكِت في قلبه نكتة سوداء حتى يسود القلب كله".

فأخبر سبحانه أن ذنوبهم التي اكتسبوها أوجبت لهم رينا على قلوبهم، فكان سبب الران منهم، وهو خَلْق الله فيهم . فهو خالق السبب ومُسَبَّبِه، لكن السبب باختيار العبد، والمُسَبَّب خارج عن قدرته واختياره .

... وأما الغُل: فقال تعالى:﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[يس: ٧ – ١٠]، قال أبو عبيدة: منعناهم عن الإيمان بموانع.

ولما كان الغُل مانعا للمغلول من التصرف والتقلب كان الغُل الذي على القلب مانعًا من الإيمان. فإن قيل: فالغُل المانع من الإيمان هو الذي في القلب، فكيف ذكر الغُل الذي في العُنق ؟ قيل: لما كان عادة الغُل أن يوضع في العُنق ناسب ذِكر محله، والمراد به القلب، كقوله تعالى:﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴾[الإسراء: ١٣].

وأما ما يضعفه: فأمور عدة، منها:

١ . الذنوب والمعاصي :

ينبغي على المسلم أن يتخلى "عن موانع الفهم، ومن ذلك أن يكون مُصِرًا على ذنب، أو متصفاً بكِبْر، أو مُبتلى بهوى مُطاع، فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصدئه، فالقلب مثل المرآة، والشهوات مثل الصدأ، ومعاني القرآن مثل الصور التي تتراءى في المرآة، والرياضة للقلب بإماطة الشهوات مثل جلاء المرآة"[١].

قال الزركشي رحمه الله:" اعلم أنه لا يحصل للناظر فهم معاني الوحي، ولا يظهر له أسراره وفي قلبه بدعة أو كِبْر أو هوى أو حب دنيا، أو هو مُصِر على ذنب، أو غير متحقق بالإيمان، أو ضعيف التحقيق، أو يعتمد على مفسر ليس عنده علم، أو راجع إلى معقوله، وهذه كلها حُجب وموانع بعضها آكد من بعض"[٢]اهـ

قال بعض السلف: "أذنبت ذنباً فحُرِمت فهم القرآن"[٣].

---

[١] - مختصر منهاج القاصدين ص٦٧ . (مع الاختصار والتصرف). وانظر: الإحياء (٢٨٤/١).
[٢] - البرهان (١٨١/٢). (مع الاختصار والتصرف).
[٣] - طريق الهجرتين (٤٠٨/١).

وقد تكون بعض الذنوب أبلغ في التأثير على القلب من بعض، كالغناء، فإنه سماع أهل الشهوات المحرمة، وكثير منهم يستعيض به عن سماع القرآن، والواقع " أنه يُلهي القلب ويصده عن فهم القرآن وتدبره والعمل بما فيه، فإن القرآن والغناء لا يجتمعان في القلب أبدا لما بينهما من التضاد، فإن القرآن ينهى عن اتباع الهوى، ويأمر بالعفة ومجانبة شهوات النفوس وأسباب الغي..."[1].

قال ابن القيم في القصيدة النونية :

والله إن ســـماعهم في القلب ... والإيمان مثل السم في الأبدان
فالقلـــب بيت الرب جل جلاله ... حباً وإخلاصاً مع الإحســـان
فإذا تعلـــق بالسمـاع أحـاله ... عبداً لكـل فلانـــة وفلان
حب الكتاب وحب ألحان الغنا ... في قلب عبـــد ليس يجتمعان[2]

٢ . الفضول من النظر والكلام والخُلْطة والنوم والأكل والشرب:

قال المروزي رحمه الله: قلت لأبي عبد الله - يعني الإمام أحمد- رحمه الله:" يجد الرجل من قلبه رِقَّة وهو شَبِع؟ قال: ما أرى.

وعن محمد بن واسع رحمه الله قال:" من قَلَّ طُعْمُه فهم وأفهم وصفا ورَقّ، وإن كثرة الطعام ليثقل صاحبه عن كثير مما يريد".

وعن أبي سليمان الدارني رحمه الله قال: " إذا أردت حاجة من حوائج الدنيا والآخرة فلا تأكل حتى تقضيها، فإن الأكل يغير العقل".

وعن قثم العابد رحمه الله قال:" كان يقال: ما قَلَّ طعام امرئ قط إلا رَقّ قلبه وندیت عيناه ".

وعن أبي عمران الجوني رحمه الله قال: "كان يقال: من أحب أن ينور قلبه فليقل طعمه".

وعن إبراهيم بن أدهم رحمه الله قال:" من ضبط بطنه ضبط دينه، ومن ملك جوعه ملك الأخلاق الصالحة ".

وقال الحسن بن يحيى الخشني رحمه الله: من أراد أن يغزر دموعه ويرق قلبه فليأكل وليشرب في نصف بطنه.

وقال أحمد بن أبي الحواري رحمه الله: فحدثت بهذا أبا سليمان فقال: إنما جاء الحديث: "ثلث طعام وثلث شراب"، وأرى هؤلاء قد حاسبوا أنفسهم فربحوا سدساً.

---

[1] - إغاثة اللهفان (١٤٩/١)، وراجع بقية كلامه رحمه الله.
[2] - النونية ص٢٢٤.

وعن الشافعي رحمه الله قال: ما شبعت منذ ستة عشر سنة إلا شبعة أطرحها؛ لأن الشبع يثقل البدن ويزيل الفطنة ويجلب النوم ويضعف صاحبه عن العبادة.

وقالت عائشة رضي الله عنها: " أول بدعة حدثت بعد رسول الله: الشبع، إن القوم لما شبعت بطونهم جمحت نفوسهم إلى الدنيا" .

٢ . عدم حضور القلب:

وقد مضى كلام الحافظ ابن القيم رحمه الله حيث جعل" الناس ثلاثة: رجل قلبه ميت... الثاني: رجل له قلب حي... لكنه مشغول ليس بحاضر؛ فهذا أيضاً لا تحصل له الذكرى. والثالث: رجل حي القلب مستعد، تُليت عليه الآيات فأصغى بسمعه وألقى السمع، وأحضر القلب، ولم يشغله بغير فهم ما يسمع، فهو شاهد القلب، فهذا القِسْم هو الذي ينتفع بالآيات"[١].

وإنما يتخلف القلب عن الحضور حال التلاوة أو السماع لأسباب متعددة، منها:

أ - أن يكون مطلوب القارئ منحصراً في القراءة فقط والإكثار منها فحسب؛ طلباً للأجر، وقد مضى الكلام على ما يتصل بهذا المعنى عند الكلام على الشروط.

قال الحسن رحمه الله:" يا ابن آدم كيف يرق قلبك وإنما همتك في آخر السورة؟"[٢].

وقال ابن الجوزي رحمه الله:" وقد لبَّس على قوم بكثرة التلاوة، فهم يَهُذُّون هذا، من غير ترتيل ولا تثبت، وهذه حالة ليست بمحمودة، وقد روى جماعة من السلف أنهم كانوا يقرؤون القرآن في كل يوم أو في كل ركعة، وهذا يكون نادراً منهم، ومن داوم عليه فإنه وإن كان جائزاً إلا أن الترتيل والتثبت أحب إلى العلماء، وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم:" لا يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث"[٣].

ب - اشتغال القلب بمخارج الحروف، والمبالغة في ذلك، والتكلف في الإتيان بالمدود؛ فإن القلب يتوجه عندئذ إلى القوالب اللفظية دون أن يتجاوزها إلى المعاني.[٤]

---

[١] - المدارج (٤٤٢/١).
[٢] - الزهد لأحمد ص٢٥٩، مختصر قيام الليل للمروزي ص٢١٥.
[٣] - تلبيس إبليس ص١٣٨. وانظر نحوه ص١١٠.
[٤] - للاستزادة راجع: الإحياء (٢٨٤/١)، مجموع الفتاوى ( ).

ج . **قلة الرغبة في تَفَهُّمِه، وتَوَفُّر الهمة في الاشتغال بغيره من العلوم**، وهذا حال كثير من طلاب العلم وغيرهم. وكان شعبة بن الحجاج رحمه الله يقول لأصحاب الحديث:" يا قوم إنكم كلما تقدمتم في الحديث تأخرتم في القرآن"[1].

وقال الشافعي رحمه الله عن القرآن:" حق على طلبة العلم بلوغ غاية جهدهم في الاستكثار من عِلْمه، والصبر على كل عارض دون طلبه، وإخلاص النية لله في استدراك عِلْمه: نصا واستنباطا، والرغبة إلى الله في العون عليه، فإنه لا يُدرَك خير إلا بعونه؛ فإن من أدرك علم أحكام الله في كتابه نصا واستدلالا، ووفقه الله للقول والعمل بما علم منه: فاز بالفضيلة في دينه ودنياه، وانتفت عنه الرِّيَب، ونَوَّرَت في قلبه الحكمة، واستوجب في الدين موضع الإمامة"[2].

وقال شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية رحمه الله:" وأما طلب حفظ القرآن: فهو مقدم على كثير مما تسميه الناس علما: وهو إما باطل أو قليل النفع، وهو أيضا مقدم في التعلم في حق من يريد أن يتعلم علم الدين من الأصول والفروع، فإن المشروع في حق مثل هذا في هذه الأوقات أن يبدأ بحفظ القرآن فإنه أصل علوم الدين، ... والمطلوب من القرآن هو فهم معانيه والعمل به، فإن لم تكن هذه هِمَّة حافظه لم يكن من أهل العلم والدين"[3].

وقال ابن الجوزي رحمه الله:" ولو تفكروا لعلموا أن المراد حفظ القرآن وتقويم ألفاظه، ثم فهمه، ثم العمل به، ثم الإقبال على ما يُصلح النفس ويُطهر أخلاقها، ثم التشاغل بالمهم من علوم الشرع. ومن الغبن الفاحش تضييع الزمان فيما غيره الأهم"[4].

د . قد يكون حضور القلب لِتَفَرُّقِه لأمور عارضة من هَمّ بصاحبه، أو انفعال وتوتُّر، أو قلق مُزعج، أو فرح مُفْرِط، أو أَلَم يُعانيه، أو حَقْن أو حَقْب أو غير ذلك من الأمور التي تعرض للإنسان، فينبغي أن يكون وِرْدُنا في التدبر في حالٍ تتهيأ فيها النفس، وتكون مستعدة للتدبر والتفهم.

٣ . التصورات الذهنية القاصرة:

إذ الإنسان – كما سبق – أسير لمعتقداته وتصوراته وأفكاره، فمن التصورات الفاسدة التي تحول دون التدبر:

---

[1] - السير (٢٢٣/٧).
[2] - الرسالة ص١٩.
[3] - الفتاوى (٥٤/٢٣).
[4] - تلبيس إبليس ص١٣٧.

١ - اعتقاد أن القرآن نزل لمعالجة أوضاع وأحوال كانت في عصر التنزيل، ولا تعلق له بحياة الناس المعاصرة ومستجداتها!!

وقد مضى طرف من الكلام الذي له تعلق بهذه القضية عند الكلام على شروط التدبر. وهكذا من ينظر إليه باعتبار أنه كتاب يُقرأ للبركة فحسب، أو للرقية، أو في المآتم والأحزان.

قال ابن القيم رحمه الله:"أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته وتضمنه له، ويظنونه في نوع وفي قوم قد خلوا من قبل ولم يعقبوا وارثا، وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن. ولعمر الله إن كان أولئك قد خلوا فقد ورثهم من هو مثلهم أو شر منهم أو دونهم، وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك"[١].

وقال الشيخ عبدالطيف آل الشيخ رحمه الله:" وربما سمع بعضهم قول من يقول من المفسرين: هذه نزلت في عُبَّاد الأصنام، هذه نزلت في النصارى، هذه في الصابئة، فيظن الغُمر أن ذلك مختص بهم، وأن الحكم لا يتعداهم، وهذا من أكبر الأسباب التي تحول بين العبد وبين فهم القرآن والسنة"[٢].

٢ - الورع البارد:

وذلك أن بعضهم ربما ترك التدبر تورعًا من القول على الله بلا علم.

يقول عن ذلك ابن هبيرة رحمه الله:" من مكايد الشيطان: تنفيره عباد اللّه من تدبر القرآن لعلمه أن الهدى واقع عند التدبر، فيقول: هذه مخاطرة، حتى يقول الإنسان: أنا لا أتكلم في القرآن تورعًا"[٣].

ولذلك قال ابن القيم رحمه الله:" ومن قال : إن له تأويلا لا نفهمه ولا نعلمه وإنما نتلوه متعبدين بألفاظه ففي قلبه منه حرج"[٤].

وقال الشنقيطي رحمه الله:" قول بعض متأخري الأصوليين: إن تدبر هذا القرآن العظيم، وتفهمه والعمل به، لا يجوز إلا للمجتهدين خاصة، ...قول لا مستند له من دليل شرعي أصلا. بل الحق الذي لا شك فيه، أن كل من له قدرة من المسلمين على التعلم والتفهم، وإدراك معاني الكتاب والسنة، يجب عليه تعلمهما، والعمل بما علم منهما...

---

[١] - المدارج (٣٤٣/١).
[٢] - تحفة الطالب والجليس ص٥٩.
[٣] - ذيل طبقات الحنابلة (٢٧٣/٣).
[٤] - التبيان ص١٤٤.

مما يوضح ذلك: أن المخاطبين الأولين به الذين نزل فيهم هم المنافقون والكفار، ليس أحد منهم مستكملا لشروط الاجتهاد المقررة... لو كان القرآن لا يجوز أن ينتفع بالعمل به، والاهتداء بهديه إلا المجتهدون بالإصطلاح الأصولي لما وبَّخ الله الكفار وأنكر عليهم عدم الاهتداء بهداه، ولما أقام عليهم الحجة به...

ولتعلم أن كتاب الله وسنة رسوله في هذا الزمان أيسر منه بكثير في القرون الأولى؛ لسهولة معرفة جميع ما يتعلق بذلك... فكل آية من كتاب الله قد علم ما جاء فيها من النبي صلى الله عليه وسلم ثم من الصحابة والتابعين وكبار المفسرين"[1].

والله تعالى أعلم وصلى على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

[1] - الأضواء (٤٤٧/٧). وراجع بقية كلامه رحمه الله فإنه مفيد.